

نفر نبي وعلم أفاضلون

تأليف: أندريه شديد
ترجمة وتقديم: صوكادق سليمان



رئيس مجلس الإدارة:

أ.د. سمير سرحان

رئيس التحرير:

فتحى العشرى

المترجم الفنى:

رفيق يونس

تفريقي وحلم أخناتون

تأليف: أندريه شديد

ترجمة وتقديم: صادق سليمان



الهيئة العامة للكتاب

١٩٨٨

★ هذه هي الترجمة الكاملة لرواية « نفرتيتي وحلم اخناتون »

Andrée Chédid

Néfertiti et le rêve d'Akhnaïon,
Flammarion, 1974.

مقدمة

لعل ما يجعل تناول رواية « نفرتيتي وحلم
أخناتون » بالترجمة أمرا عظيم الفائدة في عالم
المعرفة ، انها من تأليف كاتبة مصرية فرنسية شهيرة
معاصرة هي : « أندريه شديد » .

وليست شهرة الكاتبة وحدها هي الدافع وراء هذه
الترجمة ، وانما كان وراء ذلك أيضا عاملان آخران
غاية في الأهمية : الأول هو أن هذه الرواية التاريخية
ظهرت منذ وقت ليس ببعيد ، فقد نشرت سنة ألف
وتسعمائة وأربعة وسبعين وتالت بها الكاتبة « جائزة
أفريقيا البحر المتوسط » كما أن موضوعها غاية في

الامتاع الفكرى ، فهى عن عصر من أزهى عصور مصر
الفرعونية •

والأمر الثانى هو أن الكاتبة مصرية المنبت • فهى
وليدة القاهرة العريقة سنة ألف وتسعمائة وواحد
وعشرين ، من أبوين أحدهما سورى والآخر لبنانى ،
ولكن بناءها الفكرى وغذاءها الروحى كانا بين جنبات
الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، حيث حصلت على درجة
الليسانس فى الآداب ثم قضت بعد ذلك ثلاث سنوات
فى لبنان قبل أن يطيب لها المقام مع زوجها الفرنسى
فى باريس من سنة ألف وتسعمائة وست وأربعين •

وهكذا تكون الكاتبة قد قضت ربيع عمرها فوق
أرض مصر الخضراء فكانت هذه الأرض فى النهاية
ملاذا لفكرها الغزير ومشاعرها الرقيقة ترتضى فى
أحضانها كلما غلبها الشوق وجرفها الحنين الى الماضى
العطر الجميل ، فينتلق القلم معبرا عما يجيش فى
صدرها من اعزاز لهذه الأرض الحبيبة •

وهذا ما حدث عندما تناولت هذه القصة بالكتابة ،
فها هى مصر الخضراء ، الواحة الغناء الوارفة الظلال ،
ترتع الكاتبة تحت أشجارها وبين جداولها الرقراقة ،

وها هي بأسلوبها العذب البديع تتغنى بعضارتها
الغريقة عراقة السنين معلنة للدنيا كلها غربها قبل
شرقها - هذه مصر الأصيلة ، مصر الحضارة ، مصر
التوحيد ، مصر منبت الديمقراطية منذ آلاف السنين .

ولسوف يجد القارئ نفسه في ثنايا الكلمات
لأن الأدبية بحسها المرهف ونبضها الرقيق استطاعت أن
تنسلخ من ذاتها لتكون هي / هو في النهاية ، متحدثة
باسمه ، قارئة أفكاره ، مستشعرة أحاسيسه نحو حضارة
مصر الضاربة في أعماق التاريخ ، تلك الحضارة التي
قدمت الكثير والكثير ، ومن بين ذلك الكثير قدمت
« أخناتون » ذلك المصري الذي سبق الزمان بزمان ،
فعلم البشرية كلها نظام الحكم الديمقراطي السليم
وعبادة التوحيد وفن العمارة والتشييد .

ولسوف يستكشف القارئ كذلك وصفا دقيقا
للنظام الاجتماعي الذي ساد في تلك العصور . وما كان
فيه سادة القوم من كبرياء وترفع ، وأى سلطان كان
للكهنة ورجال الدين في تلك الأزمنة .

كما سيرى في قراءاته صورة حية لعامة الناس
وطبقة الكادحين في المجتمع المصري ، وكيف كان يعامل

هؤلاء البسطاء من قبل النظام الحاكم ، وما كان يلاقيه
هؤلاء من مهانة وذل وكيف كانت مشاعر اخناتون
الرفيقة وزوجته حيالهم •

سيرى مصر القوية ذات النفوذ الممتد شرقا وغربا
وشمالا وجنوبا ليستشعر العزة والفخر ان كان مصريا
وليقف اجلالا واحتراما لهذه الأمة ان كان من غير
أبنائها *

هذا هو نسيج الرواية التي استوحتها الأدبية من
قصة الفرعون الأشهر اخناتون ، وان كانت الحقائق
التاريخية بمنأى عن الدقة المتناهية كما أقرت بذلك
الكاتبة نفسها ، فان ذلك لا يؤثر في قيمتها الأدبية
الرفيعة ، تلك التي تقيم في النهاية الجسور بين ماض
عريق مزدهر وحاضر مشرف مستنير لبند عريق في
الحضارة • ولترسم صورة أكثر سعادة من خلال مستقبل
مشرق قائم على الحب والتسامح ونبد العنف والأحقاد •

وليس هذا مقام الحديث عن أعمال الكاتبة الخلاقية •
وسوف نكتفى هنا بالإشارة وبايجاز الى بعض أعمالها
اتماما للفائدة •

لقد خاضت الكاتبة في بحور الشعر منذ الثانية

عشرة من عمرها ، فكتبت - على سبيل المثال « نصوص
الى الأرض الحبيبة » ونذكر لها فى مجال الرواية
« النوم الخاطف » وكذلك روايتها الشهيرة « اليوم
السادس » •• وفى مجال القصة القصيرة « الجلد
الضيق » •

كما كتبت للمسرح كذلك ، فنذكر لها « بيريتيس
مصر » كما كان للأطفال نصيب من انتاجها الأدبى
فكتبت لهم « القلب المعلق » الى غير ذلك من الأعمال ••
هذا وقد حصلت الكاتبة على جوائز أدبية عديدة •

صادق سليمان

الجزء الأول

مدينة الأفق « الموقع »

أقيمت مدينة الأفق سنة الف وثلاثمائة وتسع وستين قبل الميلاد . ويقع المكان الذي اختاره لها « أمينوفيس الرابع » الملقب « بأخناتون » وزوجته « نفرтитي » فى منتصف الطريق بين « ممفيس » التى كانت مكان القاهرة الحالية وبين « طيبة » التى هى الآن مدينة « الأقصر » على الضفة الشرقية لنهر النيل .

وجدير بالذكر أن نفرтитي شاركت زوجها « أمينوفيس الرابع » فى اختيار هذا الموقع من أجل بناء العاصمة الجديدة وهى الآن « تل العمارنة » .

فى هذا المكان ، تبعد الصحراء عن النيل فتبدو الأرض على شكل نصف الدائرة بطول عشرات الكيلو مترات وبعرض يقترب من خمسة كيلو مترات .

وفي أحضان هذا المدرج الصخري تم نحت مسلات ضخمة ،
فكانت هذه المسلات بمثابة امتداد لحدود المدينة • وقد نقش عليها
تاريخ البناء وقصته • كما كتب عليها كذلك :

« ها هو المكان الذي لا يدخل في حوزة أى من الأمراء أو أى
من الآلهة • ولا يمتلكه أحد • هذا مكان الجميع •• هنا تجد
الأرض سعادتها • وسوف تسعد بها القلوب » •

هدم المدينة سنة ١٣٤٧ ق م

حينما استولى القائد « حور محب » على السلطة ، قام بتنصيب نفسه ملكا على البلاد . وجعل مقره في « طيبة » العاصمة القديمة . وتجلى حقه ضد أخناتون وزوجته على الدوام . فكان لا يفتأ يظهر هذا الحقد نحو كل ما أنجزه الزوجان وأقراه .

قام حور محب بإرسال الآلاف من الرجال الى « مدينة الأفق » فقاموا بهدمها وشوهوا مقابرها وهدموا المنشآت بها . كما حطموا اسميهما بطريقة وحشية قاسية : لقد أزالوا بالمطارق الضخمة اسم اخناتون وزوجته بعد أن كانا منقوشين على الجدران . وهكذا ماتت الى الأبد فكرة احياء المدينة وضاع الأمل في بنائها من جديد حتى أن من بقى من سكانها قام بهدم المنازل أيضا . لقد سبوا بها سطح الأرض ، بل وغطوا الأرض بطبقة

سميكة من الأسمنت على نحو يوحى بأن القائمين بهذا الأمر أرادوا أن يبيدوا من الوجود مكانا ترتع فيه الأمراض • وتنبعث منه العدوى •

ولم يبق قائما سوى القصر العلوى • وقد لاذت اليه الملكة نفرتيتى ومعها الكاتب « بوباستوس » • هذه الملكة التى شهدت الخراب الذى حل بالمدينة ، والتدمير الذى حاق بها • أنا « بوباستوس » الكاتب ذو الأصابع الخفيفة • تلميذ « أمينو » وولده • وجدت الملاذ فى معية الملكة « نفرتيتى » هناك فى القصر الشمالى • سوف أكتب ما تمليه الملكة على دون أن أغفل عن كلمة واحدة ، وسوف أسجل ما تجود به ذاكرتى من خواطر كذلك •

ها نحن - هى وأنا - مهملين فى أقاصى المدينة « مدينة الأفق » أو بالأحرى فى أقاصى ما بقى من أطلالها •

لقد أمر القائد « حور محب » الذى استولى على السلطة منذ أعوام ثلاثة ، أمر بالقضاء على جلم « أخباتون » وهدم مدينته • وسوى بها الأرض فصارت فى حكم العدم • ولم تعد غير محيط من الأحجار المتراصة والصخور المتكسرة •

أقوم بتسجيل هذه القصة فى أول فصول السنة حيث أواسط شهر الفيضان • وقد جلست « نفرتيتى » وظهرها الى النافذة • جلست أمامها فى زاوية من الحجرة ، أحاول جاهدا أن أصهر صحبة الجدران ووجودها • وأن أذيبها فى أعماق • فلا بد أن يحيط بالملكة غياب وتيه وفراغ كى يصل صوتها الى شفيتها ويغزوها بيننا من فراغ وليصل الى مسامعى فى النهاية •

أجاول ألا أكون ، ألا أكون سوى اصبعين ممسكين بريشة
منغمسة في مداد أسود ، اصبعين نشطين ، تدركان معاني الكلمات
التي طال احتباسها كي تقوم بترجمتها الى علامات على أوراق
البردي .

أنا الكاتب البائس ، سليل الطبقة الدنيا ، أصابتنى
الشيخوخة ، فصرت ذا كرش سمين وبصر ضعيف . أنا القليل
الموهبة الذي أقلع والده وسيد « أمينو » عن أن يعهد اليه
بالوظائف الرفيعة من زمن طويل .

وها هو في النهاية يسند الى مهمة تخليد مدينة الأفق .
وحيث أن صميم واجبي أن تكون مدينة خالدة ، لذا سوف أكتب
للمسافرين ، للبحارة ، لكتاب البلاد البعيدة العديدة . للأحياء
في هذا الزمان ولمن سوف يأتون . أكتب حتى يتناقل الكتاب
تاريخ أختاتون وزوجته نفرتيتي . ذلك التاريخ القريب الى النفس
والذي جهله الناس رغم ذلك ، كما ابتعدوا عنه . سأكتب ليقوم
الكتاب بتسجيله ، ولكي ينقلوه من مخطوط الى مخطوط .
وليتناقله الرواة من لسان الى لسان كي يضيف كل عصر انطباعه
من خلال ألفاظه الخاصة . وحتى لو حادت القصة عن الطريق فلم
يصيبني الهلع ، لأن صداها سيظل نداء وأملا يستطيع كل الناس
سماعه والتطلع اليه . وذلك حسب ظني على أقل تقدير .

وسوف أكتب حتى تستطيع هذه المغامرة أن تجذب انتباهك
أيها القارئ العزيز . سأكتب من خلال ذاتي وذوات آخرين
وآخرين لكي تستأثر هذه المغامرة بفؤادك وليك ، أيها الصديق
من غير الزمان .

وتتابع نظراتي نفرتيتي .

أسير وراءها طوال النهار بلا انقطاع لكي أصغى لما تقول .
ولفرط حرصى على دقة متابعتها ، أستشعر أحاسيسها وهى تأوى
فى النهاية الى أعماق عظامى .

وأحيانا تبدو الحياة عبئا ثقيلا على الملكة فيصير جسدها
ثقيلا وكأن الروح فارقتة . وهنا تعجز الكلمات عن الخروج الى
حيز الوجود .

ولكى أبعد عنها الظلام ، ذلك الظلام الذى يغلف أفكارها .
أقوم بالرقص والغناء بصحبة ضارب الطبل أو عازف القيثارة ،
أقوم بأى شئ كى تطيب لها الأحوال وأفرج عنها تلك المشاعر .
وغالبا ما أستطيع ذلك .

وفى أكثر الأحوال ، تقوم بالسير بعيدا فى الحجرات الجوفاء ،
وتؤثر أن تبعد عن الأنظار مع اشراقة الفجر ، هناك فى الطرقات
المؤدية الى الصحراء . ولأنى على يقين من أنها تفضل الوحدة ،
أقوم بالانتظار أمام القصر أسفل السلم ، تحت شجرة جميز
عجوز .

وهنا أطلق سراح الماعز لتأكل العشب حولي وتلعق رقبتى
بلسانها الرمادى . وبهذه المناسبة أود أن أشير الى أننى فقدت
الثعبان « سنب » عندما غرقت المدينة . وذلك بعد أن توالى
علينا المصائب هنا . لذلك أستشعر المرارة بين جوانحي .

سأقوم بسرد ذكرياتى فوق هذه اللقافة من ورق البردى بعد
أن تفرغ الملكة من كلامها . فقد عايشته بناء هذه المدينة وعشت
فى أرجائها من البداية الى النهاية ، لكنى عشت هناك فى الجانب
الآخر حيث كان يعيش البسطاء من الناس . وقد خيل الى فى
بعض الأحيان أنى أنظر الى أحداث التاريخ نظرة أكثر تحررا

ودقة - وأنا هناك فى الظل كما كنت أحب - من نظرة أولئك
الذين يقومون بصنع أحداثه .

تجلس نفرتيتى - هذا المساء - وظهرها الى النافذة ، ونهر
النيل الجارف الممتلىء ينساب طاعيا على ضفتيه فى هذا الفصل
من العام . والطيور المهاجرة تخط السماء بأسراب تتوارى هناك
نحو المستنقعات . ونظرات الملكة تحلق فى ناظرى ولا ترانى !

ولكى لا أشغلها عن متابعة أفكارها ، أحرص على أن تلمس
ريشتى الورقة بحذر شديد لتخط السطور تلو السطور بصوت
لا يقطع تسلسل أفكارها المتتابعة .

ويتوقف الزمان حولنا عن المسير . ويعظم السكون . فأكف
عن الكتابة كى أشارك فى صنع هذا السكون .

وأخيرا تدير « نفرتيتى » رأسها وتدقق النظر طويلا فى
الأفق ، هناك حيث يصبح الغروب كلا من الأرض والسماء بلهيب
أحمر ، ولا يلبث الظلام أن يغطى ضياء الكون .

وتنهض الملكة لتتجه الى السطح مرتفعة الهامة . تسير بخطى
وثيدة . تتقدم بخطى بطيئة . بطيئة . تحاول أن تجتاز دوامات
عميقة وصعوبات غامضة كيما تستطيع أن تبدأ المسيرة نحو أحداث
الماضى .

تدير الى ظهرها وهى على يقين أنى أسير وراءها بخطى خفيفة
وها أنذا أجد مكانا بالقرب منها هناك على السطح . وهى تعلم
تماما وبغير أن تلتفت وراءها أنى هناك قابع على الأرض ، راغب
مثلها فى أن أعيد بالقلم حلم أخناتون . أعيده الى الحياة .

وها هى تتكىء على السور وتبأمل فى أشعة القمر مابقى من
المدينة . لقد غمرها الصمت وأصابها الوهن لتلك النهاية الأليمة .

والآن تنحنى نحو الأطلال انتظارا لزد قد يجرى لكنه لا يجرى .
ويستمر الانتظار والصبر . وتميل أكثر الى الأمام . فستوف ينبعث
شيء من هذا الانتظار ومن هذا الصبر . سوف ينبعث من جديد
ويبدأ فى استعادة الأنفاس .

وتتأمل « نفرتيتى » هذه الأرض بملء عينيها أملا فى احياء
ما مضى . ورغم ما أصاب عينها اليسرى من ألم قديم كان سببا
فى انتفاخ جفنها ، الا أن ذلك لم ينل من عظمتها وهيبتها . ومع
ذلك فقد كان هذا الجمال الجريح سببا فى اقترابها وتواجدها .
وها أنذا أنسى ما بيننا من مسافة ، أنسى فارق الأصل والسلالة
والطبقة الذى ينهار وأتحدث عنها دون تعظيم وأناجيها كما يناجى
الأخ أخاه أو أخته .

» . . . لقد قام اخباتون بتخطيط شوارع المدينة
يا بوباستوس : تعاهدنا سويا على اقامة هذه الأبنية . ويكفى
أن أغمض عيني كى تنهض المعابد والمساكن من جديد وتتنفس
الحدائق من جديد . وحتى تلتقى الطرقات مرة أخرى من جديد .

الصبر يكفى أيها الكاتب . يكفى أن أطيل النظر فى هذه
الخرائب كيما تحيا مدينتنا من جديد وترتفع مرة ثانية . الحجر
فوق الحجر بعيدا عن هذا المكان الموحش الخرب لتنهض عامرة
فى النهاية وعلى وجه التقريب بعيدا عن ارادتي .

أما أنا « بوباستوس » فأقول انهم سيدمرونها ، سوف
يدمرونها ويزيدون من تدميرها . تلك المدينة . مدينة الأفق .
لسوف يحطمون آثارها تحطيمًا ولن ينجو من ذلك أيضا كتلها
الجرانيتية . . . وستوف تكون نهبا للأعداء وتسقط فى أيدي
الصوص . . . فالقبور والمعابد تغرى بسلبها . وسيأتى اللصوص

قريبا من بعدنا • سيأتون ومن جهات أخرى • يستشعرون رائحة
النهب هذه • ويقومون بسرقة الأرض ونهبها في أوعيتهم •

وأنا إذ أقول ذلك لا أدعي العلم بالغيب ، لكنني في الحقيقة
مفتتح الذهن • وأنا كذلك لا أجيد التنبؤ بما سوف يحدث في
المستقبل ، لكنني أحيانا أتصور ما سيكون ، كما لو كنت موجودا
هناك في ذاك الزمان • بل وربما يوافق تصوري ما يحدث بدقة
متناهية •

لقد أصابني الكبر وأخذت حالتي تسوء نظرا لضخامتي وقصر
قامتي • ويجبرني ذلك القصر أن أقف على أطراف أصابعي كي
أبلغ الجرة الكائنة في كوة بشجرة الجميز •

وقد حكى بعض أقربائي اني عندما قدمت الى الدنيا ، كنت
أدير وجهي باصرار الى الأرض • ونبأ الكاهن أسرتي بقصر
عمري • وما أنذا قد تحدثت قوانين غامضة وظلمت حيا لم أمت !
فما كان من هذه النواميس الا أني انتقمتم لذلك ، فمنعت طبيعتي
من الانطلاق في السماء كالآخرين •

وعندما كنت طفلا رضيعا ، كانت أمي تحملني في « خرج »
على صدرها لتظل يداها حرة الحركة • وكانت وفاتها قبل أن تحفر
ملامحها في الذاكرة • فترك غيابها في نفسي فراغا لا يستطيع شيء
أن يشغله في الحقيقة •

وكنت أذهب الى المدرسة في مريلة رقيقة الحال قبل أن
يقدم لي والدي التنورة والحزام • وكانت بشرتي تتأثر بفسوة
الحر ولفحات البرد كما كانت كذلك تسعد باعتدال الجو • وكان
والدي يطعماني كميات كبيرة من لحم الحمير لما فيه من عظيم
الفائدة وأثره في: نماء الأجسام • ولما كنت موهوبا في الموسيقى.

وقرض الشعر ، فقد دأبا على تقديمي الى الضيوف من الجيران
لأرقص وأغنى دونما اعتبار للمكان طالما كان في ذلك سعادة لي .
وكنت أخفي قصر أطرافي بعصا منقوشة أضعها في يدي . وكان
الأطفال يلتفون حولي ويصفقون . وحتى الكبار كانوا يصفقون
كذلك تحية لي . وكان ذلك يضيف على مزاجي الخاص احساسا
بالغبطة والبهجة رغم خلقتي الخالية من التناسق .

وكما كبرت في السن ، كبرت كذلك نفرتيتي وظهرت علي
علامتها علامات الوحدة وحياة الشقاء . فصرت أرى في جبينها
وعينيها سطح بحيرة تعمل فيها الزوابع بدرجة جليلة ، كما أن
لأشعة الشمس الأثر البالغ في وجهها .

وكنت على يقين قبل ذلك أن نضارة وجهها وبشرتها الناعمة
سيوف يغشيها نسيج الشيخوخة المتكرمش . فهل يا ترى راودتها
هذه الفكرة مثلما راودتني وبنفس هذه الدرجة من اليقين ؟ وهل
تفكر الآن في هذا الأمر ولو للحظات قليلة ؟

« أن التاريخ ليعتصرنا بقسوة بالغة يا « بابوستونس » .
انه يقبض علينا بيديه الفولاذيتين منذ قدومنا الى الحياة . ولا فرق
حين يكون الميلاد هنا أو هناك ، في هذا الزمان أو ذاك ، بين هؤلاء
أو هؤلاء ، ورغم كل ذلك ، فالعقل قادر على فك الحصار .

وانني على يقين بأن أنفاس أخناتون وروحه الجريئة - وحيث
يحيى حياة الخلود - على يقين بأنها مفعمة بهندة الأفكار . وأنا على
يقين كذلك بأن روحه تجاوزت حدود شخصيته وحدود مدينته .
وأنها صارت الآن في كل مكان ، بل وتجاوزت كذلك حدود الزمان
الضيقة .

صف أيها الكاتب أرض مصر هذه . صفها كما كانت قبل

مولده أعلم الناس بهذه الامبراطورية المترامية العريقة الفتية .
اذكر هذه الأرباب العديدة قبل أن تتناول « أتون » بالحديث ذلك
الحياة والنور . وحتى ذلك الزمان يا « يوباستوس » كانت
الأرباب في صورة البشر كما كانت تعبر عن مخاوفهم . . . »

هنا وبالقرب من الشريط الأخضر الخصيب ، ومنذ أربعة
آلاف عام ، عاش الناس واستقروا . عرفوا الصوان والعظام
التي استخدموها في الحفر والنقش ، وقاموا بصناعة السلال
والقماش الخزف . كما صنعوا التماثيل والأدوات من المعدن
الصلب .

ثم أتى « مينا » العظيم ليوحّد شطرى مصر . الشمال
مع الجنوب .

وكلما أكتب فترة من الوقت ، أقوم بقراءة ما سجلته بصوت
مسموع ملتصقا موافقة الملكة على ما سجلته . فأنا أزيل الآن أنقاض
المدينة لأمهء المكان من أجل أخناتون .

وتنهض نفرتيتي واقفة لتجوب سطح القصر تاركة اياي دون
أن تلفظ كلمة ، ثم أسمعها تهبط درجات السلم بخطى رشيقة .

الأرباب ؟ . . . كانت مصدر المتاعب لي ! كنت أسأل
الأقارب عن أمرها منذ كنت صبيا . وكانت هذه التساؤلات مصدر
ازعاج لهؤلاء الأقارب . فكانوا يكيلون لي الضرب كي أكف عن
السؤال . وما كنت أملك إلا أن أصبح من فرط الألم .

وكان راهب المعبد ينصّبهم بقوله : « اضربوه بعنف أشد »
« ان المرء لا ينصّب الا الى من يضربه ؛ لأن أذن الانسيبان في
ظهره » .

وكانت الآلهة تتجمهر احتجاجا على ذلك . كانت تتجمع

ومعها أنصاف الآلهة والشياطين ومعها كذلك شعائرها وأساطيرها .
فكنت أخشى أن يأتى يوم تنهار فيه أبواب العالم الآخر تحت
وطأة أقدامها وان تندفع ساعتها كالطوفان لتتعقب الناس ونطاردهم
فى كل مكان حتى تسيطر على هذه الأرض فى النهاية وتعم
أرجاءها .

وكان يخدم هذه الأرباب كاهن ضخيم وعدد كبير من صغار
الكهنة والأتقياء والروحانيين . وكانت ثروات المعبد طائلة تفوق
الخيال .

ومع ذلك كان الشعب يشعر بالسعادة والهناء أيام الأعياد
والاحتفالات التى كانت تقام فى شرف الآلهية . فكانوا ينعمون
بالمأكول والمشرب لأيام عديدة . هذا وقد تفجرت ثورات عديدة على
مر العصور لكن رجال الدين سرعان ما قضوا عليها .

ولكن عن أى من هذه المعبودات أتحدث ؟

سوف أتحدث عن آمون القوى الصلب . ذلك الاله الذى
يضيفون الى اسمه اسم « رع » ومعناها « اله الشمس » . سأذكر
« نوت » المرأة السماوية التى تثبت قدميها فى الأرض فيطول
جسدها ليرتفع الى عنان السماء . ويلمس وجهها وشعرها سطح
الأرض . أحيى « ايزيس » التى تبحث عن جسد زوجها المتفسخ
« أوزوريس » .

ولن أتوانى عن الحديث فى أمر الثورين والعقابين كآلهة .
كما أنى سأذكر التمساح « سوبك » والقطعة « باستيت » . لكنى
سوف أتوقف لحظة من أجل « خنوم » ذلك الكباش الفخارى الذى
تمثل فى البيضة التى سينبعث منها العالم من جديد . وسوف
أتجاهل اللبؤة « سمخت » وفرس النهر « تورس » والصنقر
« حورس » . ولكنى لن أغفل ذكر « توت » الحكيم ورئيس الكتبة

« أبيس » ذلك الذى يحظى باجلال والذى وتعظيمه . . . لقد دق
قلبي لتذكر « هاتور » التى لا انسى طفولتى فى أحضانها والتى
كانت تجفف دموعى فى رداؤها والتى أرضعتنى كذلك من ثديها .

وذاك « بس » الاله الأصغر صاحب الساقين القويتين . انى
أفضله ! أتحدث اليه ولا أشعر من ناحيته بالترفع والاستعلاء .
لذا تظل صورته بجوارى .

وبعد محاولتين أو ثلاث يظهر « أتون » فى الأفق . يظهر بلا
وجه وأسائل نفسى عنه . أهذا اله ؟ ألا يمكن أن يكون من فصيالتنا
نحن البشر ؟ ألا يمكن أن يكون واحدا منا أكثر اكتمالا وغموضا ؟
ولسوف يظهر على هيئة قرص الشمس .

التهم الغروب كل ضوء على ورقة البردى ، فصرت أميز ما أكتبه
يصعوبة . وها هى « نفرتيتى » تظهر دون أن أشعر بها ، تظهر
حاملة حفنة من الطين مستديرة وبها شعلة مضيئة تتناقص
بالتدريج .

— انتهى حديثى عن الأرباب . . .

ولا تعيرنى الملكة أذنا صاغية . أنهض . أتقدم نحو الضوء
الخافت . أحاول أن أسمعها النص بصوت عال . لكنها لا تبدى
استجابة لذلك . وتشير برأسها رافضة .

— وغدا سأتحدث عن الملوك . . .

منذ أن أبيت مدينتنا لم نعد نملك شيئا على الإطلاق . لم
نعد نعرف توقيت الزمان . ولم يعد هناك حتى واحدة من تلك
الآنية المخروطية التى لا تعلو ذراعا واحدا ويتخللها ثقب فى اتجاه
القاع ويحسب ما فيها من الماء وكذلك قطرها ، وحين ينساب
ذلك الماء تكون قد انقضت اثنتا عشرة ساعة . ولكى لا يفضل
الطريق بالليل نتطلع الى النجوم .

أما عن السير بالنهار فاني اثق تمام الثقة في الاهتداء
بالشمس .

ظننت انى استيقظت قبل نقرتي ، لكنها كانت هناك من
قبل في الخارج . فقد رأيتها من فتحة نافذة حجرتي ، رأيتها
تروى شجرة الجميز التي أظمأتها حرارة الشمس . أسرع الخطى
لألحق بها وببيدي كيس ممتلئ بالطعام ذلك الذي أعددتة بالأمس
تسرع ساقاي لتهبط درجات السلم . وتسمع الملكة وقع أقدامى
فتصيح قائلة : لا تسرع .

وكان من الأفضل أن استجيب الى طلبها ! فقد أدركت في
عجالتى انى نسيت الكيس الذى يعلق من حزام ملفوف حول
رقبته . وكان مظهرى يعكس خبلا جعل الملكة تنفجر ضاحكة .

وها أنذا أضع الغرارة عند قدميها وأعود صاعدا درجات
السلم من جديد ، ولا أكف عن العدو رغم وصيتها بأن أبطئ الخطى
ثم أعود اخيرا فى سرعة اسراب الجراد !

ها أنذا !

تسير الملكة وأسير فى أعقابها . كلانا يتقدم نحو الشمال
بين الاطلال فى اتجاه المحاجر حيث تتناثر هياكل المباني العائمة
ودروبها المتهدمة وأسقفها المنهارة . هنا أتعرف عن قرب على
« قصر الصيف » ؛ أتعرف على « قصر الصيف » بين أكوام الأحجار
على اليسار . لا أثر فيه « لناوذة الظهور » . تلك النافذة التى كان
اخناتون يظهر فيها ومعه العائلة على عامة الناس .

وكانت المدينة تنمو . نموا سريعا تجاه الشمال . وكان عند
شرع فى انشاء ميادين أخرى جديدة . ولم يكن قد بقى على إتمامها
سوى بعض الاسوار .

وتقف نفرتيتى أمام منزل من المنازل القليلة الباقية .
وتسأل نفسها قائلة : كيف استطاع هذا أن يفلت من الدمار ؟
لا صوت لشيء فى الداخل . ولم يكن باقيا على استكمال هذا
المسكن الا ساكف من الحجر يوضع أعلى واجهته الرئيسية ليكتب
عليه اسم صاحبه ، لقد رفع هذا الساكف حتى الدرج . وما هو
مسيحى بين الانقاض فى وحشية .

وتزيح الملكة ما عليه من حصى ورمال ويظهر الاطار فأقرأ
اسم صاحب المنزل وبعده عبارة تقول : « يقول « رع » انه سوف
يعيش ! » أما أنا فلا استطيع ان اكف عن الاعتقاد بان الآلهة
تفى بالوعود !

وتستأنف « نفرتيتى » المسير فى المدينة حيث لا أحياء
سواها . اسير وراءها كظلها . تسير وأسير فى موكب هزيل نسير
متلاحمين حتى الممات . وقبل ان نصل إلى الشاطئ الحجرى تقف
عند المسلات . فأقرأ هذه المرة كلمات « اخناتون » وأشدو بها
فى نشوة تهز المشاعر :

« هذا قسم الحقيقة

أريد أن أجعل من هذه المدينة

مكانا فيه يحيا الجميع .

ومن الجائز أن يرتبط اسم هذا المكان باسمى .

لنعش - أنا ونفرتيتى - طويلا .

لنبليخ عمرا مديدا

بعد العديد من السنين » .

اقرأ هذه الكلمات والملكة بغمضة العينين . ثم تجلس
مستندة الى الحافة . يغشيها الحزن حتى انى لا أحتمل النظر
اليها . ورغم أننا تجاوزنا الأشجار ، لم تكن نحس بحرارة فى
الجو . وفى هذا الفصل من السنة تنخفض الحرارة يوما تلو الآخر
حيث تغمر الأرض مياه الفيضان .

ولن استسلم لاغراء متعة الاستحمام أو الصيد فى قارب اذ
لا جدوى من ذلك طالما النهر جارف مشاغب . ولست بالقادر على
تحدى قواه العاتية .

كان « مينا » فى البداية . . .

ويظهر من الملكة ما يوحى باهتمامها بما أقول . اتكأت على
احدى الصخور واستطردت أقول : « مينا المحارب » مؤسس الأسرة
الأولى ومؤسس العاصمة « ممفيس » يحكم البلاد طوال اثنتين
وستين سنة قبل ان يقضى عليه فرس نهر كان يحاول
اصطياده . . .

وبعد أن أسمع الملكة ما اكتب ، كثيرا ما أضيف تعليقات
عليها من عندى دون ان اعيد قراءتها على مسامعها . فقد كان هناك
اتفاق ضمنى بيننا يفيد موافقتها على ما أضيف . ولقد تبددت كل
المخاوف فى هذا المكان المنعزل عن العالم ، ذلك المكان العادى وصار
كل منا يبحر فى حرية الآخر .

ويأتى بعد ذلك زمان الامبراطورية القديمة . . . سوف أتحدث
عن « زوسر » ملك الأسرة الثالثة . ذلك الملك الذى تتجسد فى
شخصيته هذه الكلمات الثلاث : « الحياة والصحة والقوة » .
وها هو الهرم المدرج يظهر فى الوجود عريض عند قاعدته ، مدبب
عند قمته .

وسوف أتحدث الآن عن « امحتب » • ذلك الفيلسوف والطبيب ،
والمهندس • رجل الدولة الذي يجلب الشعب • لقد كان فى ذهن
أخناتون شىء عن هذا الحكيم ... » •

كان الملوك يحاربون على الحدود قبل أيام الأسرة الرابعة
يقليل « ثم توالى الغزوات التى أتت بشمارها • تلك الغزوات التى
سارت فى اتجاه الغرب • كما شيدت الأهرامات فى عصر كل من
خوفو وخفرع ومنقرع • كما قام « سيبي » الاول بنشر سلطانه جهة
الشرق • أما فى الشمال ، فلم تنقطع قبائل البدو الكثيرة عن
الاغارة على البلاد • وكثيرا ما دحرت هذه القبائل وانهزمت لكنها
لم تخضع لسلطان الفرعون •

وأحيى من الأسرة التاسعة الملك « خيتى الثالث » لموقفه
الفريد الذى لم نر مثله فى تاريخ الملوك • اذ بعد أن أغار على
مدينته « تينيس » أحد الملوك وقام بهدمها ، اعترف « خيتى » علانية
بعدم عدالة قضيته قائلا : « لقد اكتشفت حقيقة الخطأ الذى
ارتكبته ، ولا يمكن ادانة الأعداء لأنهم على طريق الحق وأنا المذنب
الحقيقى » •

وبعد ذلك بمائة عام قامت إحدى الثورات وطرد الملك وحدث
تنازع على السلطة • وحينئذ دفن الفقراء ملاك الأراضى وصار من لم
يجد قوت يومه ، يملك صومعة للغلال • وأصبح من كان يتحلى
بالثياب المذهبة ، يرتدى الرث والردى • لكن عدالة الثورة تنحرف
عن المسار • ويأمر الحكام بالتقتيل بلا جريرة • أليست هناك
ثورة بدون دماء أو ضحايا تدنس وجوه المنتصرين ؟ • «

سوف أبدأ الكلام عن الامبراطورية الوسطى عندما ينتصف
النهار ، عندما تكون الشمس فى كبد السماء • ولأنى ضديق وفى
لمعدتى ، فقد قمت بوضع الوفير من الطعام فى كيس : اثناء الخمر

والهضل . الجميل . والفول . وبعض الخيار . • وصرت أقدم منه الى الملكة ، فضارت تعطينى هني الأخرى حفنة من التين مع رغيف من الخبز • وبعد ذلك أعود الى الصخرة وأفرد ساقي المتعبتين •

يقوم « سيزوستريس الأول » بالعمل على تثبيت عاصمة البلاد في طيبة جنوب مصر • مصر التي سادها رخاء لم تشهد مثله من قبل في ذلك الزمان • لقد احتلت بلاد النوبة • وأقامت علاقات وطيدة مع « فينيقية » • ووجدت نقوشا على الآثار أن العمال كانوا يعملون بعزيمة لا تقهر • لذا قافوا بإنجاز الأعمال الضخمة • وما كان الخدم في تلك الآونة في حاجة الى القسوة في المعاملة ليؤدوا ما عليهم من الواجبات • حتى ان أحد العمال كتب على جدران أحد المعابد : « كنت ابنا صالحا لأسلافي • • • » وهل يا ترى هناك ما يشير الى الحقيقة في هذه الكلمات ؟ وكيف يمكن أن يعيش إنسان يومه على أرض ملتهبة في فصل الصيف ؟

ورغم أن بعض الملوك كانوا يهددون وحدة البلاد ، إلا أنها كانت شديدة التماسك • وقبل خمسمائة عام من هذا الوقت ساء طالع البلاد واجتاحت أرض مصر المنبسطة أقوام بربرية لحاها سوداء • فسقطت تحت سيطرة ملوك رعاء ، وكان هؤلاء القراصنة من آسيا • وقد وفدوا بأدواتهم الحربية المتقدمة وعرباتهم التي تجرها الخيول •

وجاء زمان الأسرة السابعة عشرة ، فقويت ارادة التحرير • وأسرع « أحمس » أحد ملوك الجنوب — مرتديا الدرع واثقوا كالعنقاء ينقسم ظهر أعدائه • وهكذا رفرف علمه فوق أعلى الأبراج • والآن أترك المجال للذاكرة لتجود بما لديها • أقول الكلمات بإيقاع منتظم متناسق • أطرقها طرقا • أسرع الخطى وراء أحمس وأتعلق في بيرقه الذي يرفرف في الهواء • فهل هذه خمر

مسكرة ؟ ان الدفء ليسرى فى وجنتى وأهتز مرتعشا لنسيم الانتصار .

« ... ليظل صوتك معبرا يا « پوباستوس » ! صف لى أيها الكاتب بعد حديثك عن هذه الانتصارات الهجوم الذى وقع على تلك القلعة التى تناثرت حولها جثث القتلى . صف لى السجن الذى فيه اعتقل قادة الغزو وحكم عليهم بالقتل . حدثنى عن كبار السن الذين جمعوا تحت ضربات الحراب كما يجمع الدجاج صف النساء اللواتى تحملن صغارهن فى جراب على الظهر . صفهن هاربات أمام سهام تخترق الأجساد . صف الرجال الذين يحملون المشاعل فى أياديهم ؛ تميزهم النيران الحمراء .

لماذا تشتعل الحروب ؟ لماذا ؟ فلنترك اجابة هذا السؤال معلقة . وهل كان أخناتون من عالم آخر غير عالمنا حين كان يرفض اراقة الدماء وسفكها ؟ أم كان ينبىء بمقدم عالم جديد ؟ .

لم يكن أبى « أمينو » مخطئا عندما قال : ان مهمة الكاتب مهمة يحسدها الآخرون . فأغلب الكتاب يبغضون رجال الحرب . وتثور ثائرتهم حين يرون البعض من تلاميذهم وقد بهرتهم مظاهر النصر العقيمة . وحين يرون هؤلاء البعض ينجذون العجلة الحربية ذات الخيول الأنيقة . لهذا كان هؤلاء الكتاب يوجهون الى ذلك الشباب القليل الخبرة هذه الكلمات : « ان وجنود الجندي أمر مزعج كالكابوس . ورغم عودته منتصرا الى أرضه ، يظل عقله وجسمه كغابة ترعى الديدان فيها » .

وها هى امبراطوريتنا . الامبراطورية الجديدة .

عصر العظمة والرخاء يعقب عصر القلاقل . ويهدون أن أفرط فى الخيال أقول متسائلا : هل يعيد التاريخ نفسه ؟ أم هل يا ترى يسير التاريخ وفق أحداث ميزان لا نراه ؟

وتتوالى الفتوحات المصرية من أجل صد هجمات الشعوب المجاورة وليس من أجل الرغبة فى التوسع والاحتلال . وتزداد مكانة الكاهن ويتقدم « تحتمس الأول » على رأس ثلاثة من الرماة المخازين . كثيرون أبناءه لكنه يفضل عليهم ابنته « حتشيسوت » ذات النظرة الصائبة والارادة الصلبة . وتظل هذه تحكم البلاد طوال اثنين وعشرين عاما . يؤازرها فى ذلك النبلاء والقائده المهندس « سنموت » ، ذلك المهندس الذى حظى برضاها . وقد تزوجت أخاها « تحتمس الثانى » وبعد وفاته ، تزوجت ابن عمها « تحتمس الثالث » ولبست اللحية وارتدت لباس الملك .

وبعد موتها أشرقت شمس تحتمس الثالث ، فصار بعد ذلك أحد ملوك مصر العظام . ويأتى بعده « أمينوفيس الثالث » ليرث هو وزوجته - الملكة تى - امبراطورية شاسعة ثم ينجبا بعد ذلك « أمينوفيس الرابع » الذى لقب فيما بعد « بأخناتون » .

مرت أيام لم نستأنف خلالها الحديث .

وطوال الليلة الماضية كنت اسمع الملكة تغدو وتروح . سألت نفسها قائلاً : « هل تبخور قواها فى هذا المكان المظلم ؟ وهل يا ترى ترغب فى رفقتى ؟ انى على استعداد ان أثب نحوها وأقفز ، لكن خطواتها ابعدها . وأخذت أجوب حجرتى طولا وعرضا كى تشعر انى لست نائما وأنى رهن اشارة منها . . . لكنها لم تناد .

قمت بتسجيل كل شئ على الورق كى يعود أخناتون الى الحياة . . . وتعود مدينته . سيكون الكلام مثيرا بالنسبة لى فى واقع الامر . لكننا لا نستطيع أن نتراجع . ان وراء ما نقسوله صراعا ضامتا. تتجلى آثاره على ملامح وجهها المشدودة . انها تبلى بمرودة كما لو كانت على حافة الهاوية . وأنا على يقين أنه حينما يكون الوقت متأخرا ، تكف « نفرتيتى » عن الكلام . وأنه لى

تفتتح مدينة الأفق أبوابها لا بد ان تساعدنا في ذلك أشعة الفجر .
ولهذا لن نبدأ الحديث عن قصة هذه المدينة الا ذات صباح . ولكن
أي صباح ؟

« اتخشى أن يعصف الموت بنا - الواحد تلو الآخر - أو أن يعصف
بنا شويًا قبل ان ننجز هذه المهمة . ولكن هل يا ترى سيكون
الموت موتًا طبيعيًا ؟ أم سيكون موتًا على يد قاتل يستأجره » خور
ميجب . « لا شيء يوحى بالحماية والأمان في هذا المكان الموحش حتى
نباح الكلب ! لقد تكسرت آخر سلة - صيد كانت لدينا منذ
شهور . فلم يعد هناك كلب ولا سلة ! وما نحن في الحقيقة تحت
رحمة أقل ضربة غادرة .

لكن من نحن بالنسبة الى الأعداء ؟ من نكون ؟ لسنا سوى
ملكة متهورة وكاتب عجوز . نفختان في مدينة صامتة . سوف
يقول الأعداء حتما أننا مسالمين ، وسوف يتركوننا نموت في هدوء
حسب ما أتصور .

وكيف نموت في هدوء ؟ لن نكون في سلام قبل أن نقوم بهذه
المهمة ، حين نتخيل كتبة وكتبة يجلسون على حصير ، يتصفحون
أوراق البردى ويقرءون بصوت يسمعه الجميع .

لقد كان والدي « أمينو » يردد على الدوام : « ان الكلام
والكتابة أقوى كثيرا من الأثر التذكاري . وأن الاسم الذي يتردد
على السنة الرجال ليشيد الأهرامات في القلوب » .

وسوف أشعر بالسعادة الغامرة حين أفرغ من تجميع الجزء
الأول من هذه الأوراق انتظارا لحديث الملكة . ذلك الحديث الذي
لا أدري متى سيبدأ . وسوف أضيف وأحذف بالمداد الأحمر بعض
العناوين المدونة من هذه النصوص التي كتبتها بالحبر الأسود . ان

ما فى حوزتى من هذه الأحبار ليتميز بالجودة الفائقة . وكم أوليت كتابتى من عناية فائقة ، كما فعلت ذلك ، كذلك ، حين كنت أجسد العلامات على الورق .

طلع الفجر والملكة « نفرتيتى » تسير تجاه النهر العظيم .
أسير فى عقبها . الوجه لامع أملس هادى ، هكذا كان وجهها .
سوف نبدأ اليوم قصتنا .

وقد شربنا لبن الماعز قبل أن نهم بالرحيل . حلو فى الحقيقة ذلك اللبن . كما عثرت على حديقة خضروات كذلك ، ولا شيء ينقصنا . وايضا عثرت على كهف من الخمور كان بين الانقاض . وهنا ينبغى ان اشير الى ان الملكة تقنع بالقليل من الطعام . وكم تكون سعيدة حين ترائى التهم الطعام بشراة . ان لى ثلاث طيات على بطنى اتخذ منها متكئا ليدى حينما تتعبان من الحركة .

ها نحن نهبط درجات السلم ونتجه تجاه الضفة الشرقية فى طريق الملك . تتسابق الكلمات وتتزاحم فى حلق الملكة بعد صمت طويل . نبحث عن مكان للجلوس كى نبدأ الحديث من جديد . انها حارسة المدينة الخربة الحزينة . تسير وتسير وتنظر وراءها لتطمئن انى وراءها أسير .

نسير بمحاذاة قصر السرور المطل على بحيرة ذات شاطئ يتدرج بانحدار . القاع جاف والحديقة جافة كذلك . فى تلك الحديقة ، كانت العائلة الملكية تتنزه بين عامة الناس . لقد داستها الاقدام . اشجارها منكسة ! الاشجار منكسة ! وقد بقيت بعض رسوم زهرة اللوتس على حواف حوض الاستحمام . وكذلك نبات ورد النيل . وعلى قارعة الطريق تتراكم هياكل سلالات الكلاب الملكية . هناك كشك ظليل ، تشير اليه الملكة ، كما لو

كانت قد جاءت لاكتشافه : تقول فى دهشة : كيف استطاع ذلك
البناء الخشبي الهش أن يظل قائما وسط الأطلال ؟ انه رمز للتحدي
فى النهاية .

وتتجه نفرتيتى الى النهر . ويطيب لها الجلوس على الشاطئ
تحت الشجرة . شجرة صفصاف تتدلى فروعها لتنغمس اطرافها
فى المياه . اجلس بجوارها وليس معى لا القيثارة ولا ضارب الطبل
ومع أن الطبيعة تخذلنى على الدوام ؛ الا نها وهبتنى صوتا شجيا .
وها أنذا أشدو بأغنية الماء :

« جميل ان يسير المرء حذاء النهر

كى يكون منه قريب .

انظر . ها أنذا أنزل فى الماء

اعبر الأهواج

وحين يكون حبك هناك

يمتلئ ، قلبى قوة وشجاعة

المياه قوية قوية . والتربة كذلك فى نفس القوة .

« عرفت البحر حين كنت طفلة صغيرة ، لكن معرفتى به لم تدم
طويلا . فقد بعدت طيبة عن مياهه . تلك المدينة التى فيها نشأت .
لا أدرى أية ظروف قادتنى الى قضاء بضعة أيام على شاطئه . لا
أنسى تلك الأيام .

كانت مربيتى « سيكى » تصطحبنى الى الشاطئ ساعة
الشفق . وكنت أسير الى المكان الذى عنده تموت الموجه الأخيرة .

كنت أضغط بقدمي على الأرض المبتلة وأغرس أصابعي في الرمال
فيرتسم قدمي عميقا للحظات في سطح الأرض .

وكانت الموجة تشرب كل شيء رسمته وبسرعة . فما أزال
أعيد الكرة من جديد وباصرار . وكان ذلك يثير ضحك المربية
لفترة طويلة . وكان عنادي هذا فاترا شاحبا اذا ما قورن بطغيان
المياه الكاسح . وكنت رغم ذلك أتوسل اليها كيما تشترك معي
في المحاولة ولو لفترة قصيرة . وكانت آثار يدي وأصابعي في
الرمال مبعث غبطة وسعادة لا يمكن تخيلها ، فكان يسكن في داخلي
اقتناع غريب ، بأن انتصار البحر الجارف ليس الا أمرا ظاهرا ! وأن
تأثير الانسان في مياه البحر مهما كان هشا زائلا يخلد ويخلد الى
ما لا النهاية .

عرفت منذ زمن بعيد « أن المستحيل هو التحدي الوحيد
الجدير بعظمة الانسان » . وكنت أتوسل الى مربيتي « سيكي »
أن تفعل مثلما أفعل لكنها لم تكن تستسلم لمثل هذه الألعاب .
وكانت تردد قائلة : « كوني عاقلة ، انهم في انتظارنا » .

كان القصر القديم ينتظرنا . وكان عليه أن ينتظر ! والمربية
« سيكي » تجذبني من يدي فأقاومها . كانت بدينة في رداء
مشدود ، مثبت بحمالات عريضة . وكانت تزوم ويحمر وجهها
حينما اقاوم رغبتها في المسير . وكنت أدير وجهي نحو مياه البحر
ولا ألبث حتى استسلم في النهاية . والبحر يجلب كل شيء الى
باطنه ويعود الى الشاطئ من جديد ..

وكانت المربية تسألني أن انظر امامي لأرى موطئ قدمي . ولم
أكن اسمع ما تقول . كان الأفق يشد ناظري . كانت تنصحني أن
استمتع برؤية الحدائق القريبة والقصر وأن أداوم السير معها

فأرفض قائلة : « البحر وحده مائل أمامي الآن ، والبحر وحده ! » .

وقبل ان ندخل القصر ، تسير « سيكى » فى أحد الممرات وهى تنادى ان تعالى ! تلفنى فى ردائها وتمسح الرمال من فوق ساقي وهى تربت ربتات خفيفة . وكانت تحك قدمي وهى تباعد بين أصابعي . وتلبسنى النعل وخدى مستند الى خدها . ثم تضحك . وأنفاسها تداعب أذنى . وكنت بدورى أضحك أنا الأخرى . وبعد ذلك سارت فى انحاء الحديقة بخطى وثيدة وهى تحملنى على ظهرها فى ممرات تحف بها الأزهار .

ماتت أمي بعد مولدى بقليل . كانت قريبة للملكة « تى » . لذا قامت هذه برعايتي بعد موتها . فقد تربيت فى قصر الملك « أمينوفيس الثالث » « بطيبة » بين بناتهم الكثيرات ومع ولداهم الوحيد . ولم تفارقنى « سيكى » طوال طفولتى . كانت سمراء الوجه ، مشرقة البشرة . وكانت كثيرا ما تؤكد على مسامعى :

« انه من الأفضل للمرأة ان تكون نظيفة خير لها من ان تكون جميلة ! » . كانت مكتنزة بسمينة ، طيبة الرائحة . وكنت اروح وأجيب على بطنها وصدرها كما لو كنت أتنقل بين أرجاء محجر للفخار أو الخزف . ولم أر شعرها من قبل .

وذات يوم رأيته قبل أن تمشطه فوجدته أشيب . ورأيت عينيها ذابلتين ورموشها متساقطة . ووجدت التجاعيد تحاصر فمها . كما أدركت ان رقبتها اكثر نحافة بالقياس الى حجم جسمها المكتنز . تأملتها فى دهشة . لقد بلغت مائة عام فى وقت قصير ! وبدأت عليها علامات الشيخوخة بلا مقدمات . وبدأت فى الحال أنها وأوشك ان افتقد قواي ! سأفتقد واحتي ومسلذى ؛ فكنت أرتعد باكية دون أن تفهم معنى لذلك .

ولم يغير هذا المشيب من مشاعري نحوها . فكنت اتظاهر
باللجوء اليها طلبا للحماية والعطف . وكانت هي في ذلك الحين
في مهيسس الحاجة الى الحنان والرعاية . فعزمت على أن اكون
حصنها المنيع حماية من مخاطر العجز والشيخوخة وأن أوفر
مرضها وسببها وموتها . .

توفيت والدتي « ستيامون » عندما بلغت الثالثة عشرة .
ومات والدي بعدها بقليل كذلك رغم أنه كان يكبرها بسنين
عديدة . وكانت ستيامون أميرة ملكية الا أنها لم تلعب أى دور في
البلاط لأن الملكة « تى » كانت توارى الى الظل كل من حولها من
النساء لفرط جمالها الفتان وشبابها الأخاذ .

وكانت سىكى تحدثنى عن والدتي « ستيامون » حيث قامت
بتربيتها في حجرها . وكذلك كانت الملكة « تى » تحدثنى عنها
كانت الأختين متشابهتين في كثير : العينين الغائرتين ، الوجنتين
البارزتين ، لون البشرة . وربما كانت الواحدة تشبه أختها تماما
وحتى خضرة العين كانت واحدة .

وحسب مكنون ذاكرتى ، تظل دائما والدتي « ستيامون » في
الثالثة عشرة من عمرها ، بينما يساير عمري مسيرة الزمان ! ولما كان
الزمان لا يغير شيئا في الذين لم يلتقوا الا فترة قصيرة وكذلك
لا ينقص من هؤلاء شيئا . فقد ظلت والدتي « ستيامون » في
اعماق ذاتى وبين جوانحتى .

وغالبا ما أتنزه في صحبتها وهي تمسك بطفلة ليست سواي
وتقول لها حينئذ مربيتى : « انها ثقيلة على ذراعك » يا ستيامون ،
اعطنى نفرتيتى : اعطنيها . وتتركنى أمى لها . أزيح أستار
الزمان واتعرف على ذاتى من خلال هذه الطفلة التى أحملها في
داخلى . وارانى في نفس الوقت بجوار أمى سائرة !

وتارة أصير والدّة لأمى « ستيامون » • أضمتها الى صدرى
بحرارة فتتعلق بعنقى • واهدىء من روعها من جراء امر لا اعرف
كنهه • أو اسببها لآى شىء • لحياتها التى انطفأت قبل الأوان ،
لهذه الليالى التى عاشتها مع والدى العجوز ••

ستيامون يا ابنتى ! أخرجها من صممتها العميق وشرودها
الذى أغرقها • آخذ يدها فى يدى • تعالى يا ستيامون •

وفجأة نصير أختين فى عمر واحد • نجوب الحقائق • أجلس
أنا وأمى الشابة الغضة فى أحد الأكشاك • انها مكتنزة تزخر
بالحيوية • ليتنى أراها تضحك : تعالى نجرى ! هلم نجرى نحو
النهر • ها أنذا أقطف ثمرة • أرجمها بحجر • تعالى نقسمها
يا ستيامون ! تعالى يا أمى • يا بنيتى !

تعالى نجلس على الشاطئ ، ندلى بأرجلنا فى الماء • نربط
بأقدامنا فيه فتصنع الأمواج ، وتعلو الأمواج فتبتعد الأسماك •

تضحكين يا « ستيامون » أيتها الجميلة • أخيرا تضحكين ! •

تعتصر « نفرتيتى » الى درجة الهلاك ، تطلب منى أن أتلن
عن ميلاد « اخناتون » • أطوى ورق البردى لأترك فراغا وأغير القلم
ثم أكتب •• لم تنجب الملكة « تى » الا بناتا كثيرات وطفلا واحدا
من الملك « أمينوفيس الثالث » • لهذا كانت ثائرة وقلقة على
الدوام • وقد أنجبت هذا الطفل بعد دعاء طويل مستمر • وقد
ولد هذا الصغير فى العام الخامس والعشرين من حكم الفرعون
« أمينوفيس الثالث » • وبعدها وضع فى بحاية الاله « آمون »
وسمى باسم والده « أمينوفيس » •

وكانت ولادته فى طيبة ، بلد الشمس الساطعة والهناء

العليل والليل المرصع بالنجوم • ومنذ ذلك الحين ، دأب البلاط على اقامة الأفراح التى تميزت بمظاهر البذخ والسخاء •

وقد انتزعج كاهن « آمون » عند ولادة ذلك الفرعون الصغير • وكانت أمه الملكة تشور أحيانا بسبب هيمنة الكهنة على شئون الحكم • وكان وراء هذه الهيمنة ولع الملك « أمينوفيس الثالث » برحلات الصيد وتعدد حملاته الحربية • لهذا كان عاجزا عن الحد من سلطانهم •

« ... حينما وضعت الملكة « تى » صغيرها « أمينوفيس الرابع » كنت قد بلغت عامى الأول • وفور مولده ، قررت الملكة « تى » أن أكون زوجة لابنها الوحيد ، لأن زواج الأقارب أمر يحبه المصريون • وكان هذا الوريث منبعا للمزيد من الاحتفالات فأضاءت المشاعل أركان القصر ، وأطالت فيه النهار • وأبحر المركب الشراعى لوقت طويل فى هدوء على صفحة ماء النيل قبل أن يعود • وترددت أصداء الأناشيد والأغاني فى جميع الأرجاء :
« فلتعش لنا أياما بلا نهاية يا أمينوفيس ! »

وقد وصفت لى بنات الملكة هذه الرحلة فيما بعد بسنوات • قلن انى كنت بينهن • كن يتبادلننى من ذراع الى ذراع • وقيل ان احدهن غفلت عنى ذات مرة وتركتنى فى مهدى على الأرض بين الحشائش • وانى انتزعت بىدى الصغيرة حفنة من الحشيش كدت أضعها فى فمى •

وتؤكد « سيكى » أنى كنت سأموت حتفا بسبب ذلك فى تلك الليلة وأنها أنقذتنى من الموت • موت يقابله ميلاد حياة !
الأحزان مع الأفراح • ان هذه الصور تبرز تكاملا يشهد انتباهى •

لقد ولد أحد الملوك : المجد والثروة وطيبة العظيمة والأجداد
وكبار القوم والشعب ، كل هؤلاء جاءتهم هذه المنحة : ذاك
الوليد !

وكل الشفاه على أرض مصر تردد اسم الوليد . وأمام مهد
ينحنى الجميع . . ينحنون أمام من تجرى في دمائه كل ذرات
الكون . كل حنانه ، وكل غضبه . وكل فرحه ومظاهر حزنه .
لقد ولد الملك الذى يستحق أن يكون فى عداد الرجال . «

ومنذ أن وضعت الملكة « تى » الأمير « أمينوفيس الرابع »
لم يلبث أن ازداد تأثيرها وحظيت بلقب « الأم الملكية » علاوة على
اسمها الأول « الزوجة الملكية » . وساد السلام أرجاء البلاط الذى
تربى الأمير فيه . فآخر معركة قادها الفرعون « أمينوفيس
الثالث » كانت الى بلاد النوبة . وقد مضى عليها زمان طويل .
ومسارت الحرب نسيا منسيا ، وذلك لو استثنينا بعض الشهود
الذين يصفون بعض الحملات التى قام بها الفرعون الى آسيا
ويحلمون بماض كله خرافة كل أوغل فى أعماق السنين .

عاش أخناتون وسط الحريم حيث أمه وأخوته . ولم يتول
تعليمه أى من رجال الحرب . كنت تقريبا فى الثانية عشرة
عندما رأيته أول مرة ، وكان هو يومئذ فى السابعة . رأيته فى
استقبال رسمى .

فى ذلك اليوم ، كان والدى « أمينو » مكلفا بتسجيل الهبات
التي قدم بها السفراء من الخارج . وكان قد صحبنى معه الى القصر
لكى أساعده فى هذه المهمة . فكنت أمد له زجاجة المداد وأقص
له الأقلام وأعدها من أجل الكتابة .

كان حفل الاستقبال قد اكتمل بهاؤه ، وفاقت فخامته كل

وصف وسوف يتطلب وصف هذا الحفل أن أفرغ عدة زجاجات
من المداد الذهبى على الورق كى أجيد هذا العمل .

كان هناك مهرجان كبير من الألوان الزاهية . ولمحت الصغير
فى يد أمه الملكة وسط ضربات الطبول وفى رعاية حاملى المظلات .
كانت نظرتة ذابلة . ويومها طلبت من والدى « أمينو » أن يحملنى
على كتفيه لأتمكن من رؤيته بين الجمع المحتشد .

وكان الكل فى حلل فاخرة : عازفو الموسيقى والراقصات
وكبار الكهنة والنبلاء . وكانت نعالهم ذات سيور رقيقة ، وكانت
النسوة تتحلى بالعقود والأساور ودبابيس الشعر .

وكطائر رقيق تائه فى سماء قائظة ، يتقدم الأمير الصغير
عارى القدمين مرتديا وزرة متموجة من التيل ؛ وجسمه النحيل
يلفت الأنظار .

وقد حكى لى والدى أن ضعف بنيته كان ماثرا لقلق والديه .
وأن نوبات ارتعاشة كانت تنتابه من أخمص القدم الى منبت الشعر
فيرتمى على الأرض . ويضيف قائلا : ألم تر طول رأسه ؟ لقد
كان البعض يظن أنه سيموت قبل أن يبلغ الحلم .

وطوال النهار لم تغادر - أنا والملكة - الحجرة الفسيحة
المطلية على الشرفة : لقد هبت ريح عاتية وراحت ترتطم بالجدران
وهنا تعلو الكأبة وجهها . وتروح وتجيئ مثل الذئبة التى
استشعرت قدوم الموت ، وتكبح عواءها بالرغم من ذلك .

وهنا أصبح قائلا : لم يمت أخنا تون بعد . انه دائم الحياة !
فتحملك كما لو لم تكن قد سمعت شيئا لأن رغبتها فى أن تحمل
الملك ومدينته فوق أعناق الزمان كانت تسيطر على كيائها .
وأحيانا كانت هذه الرغبة تصيبها بالشلل .

وأضيف قائلاً : « ان مدينة الأفق ستظل خالدة لن تموت .
انها ستحيا في أماكن أخرى وأزمنة أخرى » . تتركني دون أن
تنطق كلمة واحدة . تخرج الى الشرفة التي أنهكتها رياح الصحراء .

ها هي تتكىء على السور . أقرب وجهها المتجه نحو الشاطئ .
الصخرى . ترى هل تحب أن تملأ عينيها وأنفها وفمها بالرمال
لتحيلها في النهاية الى الصمت الأبدى ؟ فالرياح تدخل في ثنايا
ملابسها حتى أكسبتها اللون الأصهب ؛ كما طلى الغبار الأصفر
وجهها ويديها وذراعيها .

اقترب منها بخطى غير مسموعة . اجلس في ركن الشرفة
محترماً صمتها . تغرقني كآبتها وتغمرنى . أحاول ان أحصى
الصحيفة من السحابة الصفراء وان أمنع صرير ريشتي على حبيبات
الرمال التي تعترض مسارها حين أكتب .

وفجأة تنهض الملكة . تقوم كمن أراد أن يواجه الصحراء
ويفتح صدره لها . لكن أعماقها لا تعرف الملل ، ورغم هذا فذاتها
تهوى ونفسها تتمزق ! شاحبة صفراء . أقول وكأنني لا أقول ؛
أقول ولا مجيب :

« غدا سيكون غير اليوم . غدا سيتغير عن اليوم ! » .

وفي خضم هذا اليأس الذي يفرق الانسان بين الفينة والفينة ،
في وسط هذه الاعتمالات النفسية التي تبددها إحدى الكلمات أو أحد
الأحداث البسيطة ، تعلمت الا أنام ، ان أتحمل الآلام أن أصبر
وأنتظر .

— غدا سيكون شيئاً آخر ! لقد أثرت كل كلماتي في أعماق
ذاتي .

وكأحدى شباك الصيد الملقوفة آخر النهار أرى نفرتيتي
معتصرة • أقول في نفسي : « ان اخناتون وحده هو الذى فى وسبعه
أن ينقذها مما هى فيه حين يتجه نحوها فاتحاً ذراعيه •

وأخيرا نجتاز تلك الليلة بعد عظيم عناء !

استعادت الصحراء رمالها حين هدأت الرياح كما احتضنت
كذلك الأحجار • كنا فى حاجة الى الخروج لنستمتع برقة الهواء تحت
شمس السماء الصافية • وأتوجه اليها • أقدم لها إحدى ثمار الرمان
المليئة بالحلب الوردى ذى العصاراة الحامضة •

وكان هذا كافيا لاستعادة ذكرى ماض مشرق بالضحكات كى
تظهر نفرتيتي فى النهاية وهى تهبط درجات السلم العريضة فى
رفقة « رويا » و « ميرينا » وأخريات •

أهبط درجات السلم عدوا • ووراءنا « سيكى » فى يدها سلة
ضخمة بها ثمرات رمان كذلك التى أعطيتها يا « بوباستوس »
نمتص حبها القرمزى فى فترات الراحة وبين الألعاب • نعرف بعض
اللعبات !

نتقاذف الثمار والحصى بطريقة بهلوانية فى الهواء • نلعب
كما تلعب النساء • نقف ظهرا لظهر ونمد الأذرع كل من ناحيته •
نضرب بالأيدى بينما تسند رفيقتان أخريتان أقدامهن الى أقدامنا
وأياديهن فى أيدينا والأجسام مشدودة العضلات •

وتأمرنا « سيكى » أن ندور ونلف كما تدور العجلة حتى
ندوخ ونسقط وسط الضحكات العالية • القطة « تامى » تتعلق
فى أرجلنا • والكلب « نب » ينام بعين واحدة • والقروود تتسلى
الأشجار وتنزل وتضع ثمار البلح فى أكفنا •

كيف حال قردك يا « بوباستوس » ؟ تسألنى الملكة • تسألنى

الملكة فيجيب لباني تمتمة والرأس خفيض : « فيما بعد . . . سأجيب
على السؤال فيما بعد . . . »

تستأنف الملكة قصتها كما لو كانت لم تسأل عن ذاك القرد .
يسكرني الحزن لأن ثعباني « سنب » قد اختفى . اختفى حينما
اختطف « اخناتون » من مدينته . يومها ، هرب « سنب » في غفلة
خيل الأيام الشعناء ! . . . ورغم توالي السنين ، يعود الأمل ، وأعود
لأبحث عنه بين الأطلال أملا في أن يظهر فجأة ويقفز نحوي ، ليقرب
منى بتكشيراتة وقفزاته . ويلف ذراعيه برفق حول رقبتى .

كان البستاني « شيدو » يسكن أحد الأكواخ عند طرف
الحديقة . وكنا في الغالب نذهب لنراه أثناء العمل . كنا نستمتع
الى كلامه الكثير . . . والفتى « أمينوفيس » يهرب من الرعاية الملكية
المشوبة بالخوف . كان يهرب هناك تحت كرمة في الحديقة . وكنت
الوحيدة التي تلاحظ ذلك . فكان يشير الى برأسه حتى لا أخبر أحدا
بوجوده .

كان « شيدو » رجلا قصير القامة عريض الوجه . وكانت
مهمته العناية بالحدائق ورعايتها . أما عيناى فكانتا تراقبان
« أمينوفيس » وتحركاته وهو يقف ساكنا بمفرده .

(أستأنف الحديث عن « شيدو » ذلك الذى كان ينظم الحدائق
ويقوم بتنسيقها . كان يقسمها الى مثلثات بينها ممرات مستقيمة ؛
وهو الرجل الذى يجعل من الأشجار حدودا للحدائق ؛ ويرعى كثافة
أشجار الكروم ويفخر بأنه زين الحديقة الملكية بشمانية عشر لونا من
الأشجار . وهو المسئول عن اعداد الأكشاك وتهيئتها لاستقبال
الضيوف . وهو الذى يزود هذه الأكشاك بالمياه الباردة يضعها في
آنية من الفخار ويغطيها بأوراق خضراء . وهو الذى يحدد مساحات
الماء التى يسبح فيها نبات ورد النيل . وهو المشرف على القائمين

برعاية الحدائق الأخرى حين يملؤون أحواضا مستديرة حتى حافتها
لتصب مياهها بعد ذلك فى الجداول ...

وعندما تسكت الملكة ، أنتهز الفرصة لأصنع اطارا لما تحدثت
عنه ، فذلك أمر أستشعر ضرورته . أحاول أن أحصر الصورة فى
أطر محددة وأن أكون مهندس القصة على الأقل فى النهاية . وسوف
يمسح الزمان الألوان أو يزيلها . وى شىء سيبقى عنا بعد ذلك
إذا غفلت عن الكثير من المظاهر وتخلت عن الجانب الجمالى ؟ .

عميقة تلك الكلمات . كلمات نفرتينى هكذا تبدو فى كثير
من الأحيان . تحيل المظاهر الى رماد فى لحظات . لتبقى فى النهاية
نيران هذه الأعماق . وحينئذ أتناول النص معتمدا على ذكرياتى
وذاكرتى ، فأوجه اليها المزيد من التساؤلات مركزا على ما يمس
الصميم من الأمور . وأقف عند بعض التفاصيل متمهلا مقتلعا نفسى
من هذه الأعماق .

« وبينما كان « شيدو » يتابع الحديث عن مغامراته ، كنت
أنا أتابع « أمينوفيس » . لقد صار جبينه متجهما وعيناه براقتين .
عيناه تنظران الى الأرض . فيه النقاء يسكرنى يا « توباستوس »
يجلس فى الظل وعيناي لا تفارقانه .

وفجأة يعلو صوت « شيدو » محتدا . يأخذه الحماس
للانتصارات الحربية . هكذا كما تصفه لى « سيكى » . وهنا ينسحب
« أمينوفيس » كالسائل الدليل .

ويحكى « شيدو » وأنا جالسة وسط صاحباتى ، يحكى
مغامرات أخرى عديدة . وأمينوفيس هناك يقف فى الظل ونظراتى
اليه بلا حدود . لا أريد أن أرى سواه . ان حضوره لينخفف من
حماس « شيدو » ويصنم آذان السامعين عن أعمال العنف ...

كان « شيدو » الذي يعيش بين الحدائق والنبات يرى في الحشرات عدوه الأول . كان يعرف أدق أسرار الطبيعة . كان يقول ان شحم الصفراوية مفيد في علاج أمراض الذباب وان نقص السمك يسببه برغوث الماء . . . » ولا يحلم الا بأمجاد المعارك !

يسيطر عليه الخوف المفرط من الفرعون الصغير ، فتكثر حركته وتضرب ذراعاه الهواء . كما تجحظ عيناه من الخوف .

وما زال الحديث مستمرا عن « شيدو » !

انه يتهم الأعداء ! ان هؤلاء قوم من أصل خسينس . يقومون بحرق المدن وقتل الطيور . فيحاصروهم في بلادهم ويأسر سكانها . يقيدهم « شيدو » بالسلاسل ويربطهم في الأوتار . كما يكويهم بالجمر المشتعل والحديد المنصهر .

أما « أمينو » ففي ذهشة من أولئك الذين لا تهز مشاعرهم فظاظة الأقوياء العتاة . فكيف يخفون غضبهم ولا يعلنون عن رأيهم ! ويرى ان بعض الناس مقتنع بأن للسلادة حقاً في ممارسة القمع حتى مع أنفسهم ! كما يحلم البعض ويستمرءون أن يمارسوه هم كذلك .

« وينقل الأثير عبارات « شيدو » على موجاته . وأذوب في نظرات أمينوفيس كما يذوب هو في نظراتي فتسرى في عروقنا الحياة . أغلق عيني فأرى صورته . ترن كلماته في أذني . نتعاقب من بعيد وأعيش هناك بجانبه في مكان قصى .

وكل ما في الحديقة من الأشجار يشهد بنجاح « شيدو » الفرعون . ويسمع هتاف الشعب وتملق الكهنة . السجيناء يسبقونه والحيال في رقابهم . وقبلهم قادتهم الذين ذبحتهم الضربات القوية . صوته يرن في الآذان . ذلك الصوت التابع من حنجرة تزجر

بالأحقاد • وتتدافع صاحباتى الواحدة تلو الأخرى • وتهتف
الوديان والمدن والصحراوات بعظمة « شيدو الفرعون » •

فجأة ينهض أمينوفيس • تفتابه رعشة احساس بالبرد فتهرب
منه الكلمات • وحين يلمحه « شيدو » يرتدى على الأرض اجلالاً
وتوقيراً • وهنا تمتلئ عينا « أمينوفيس » بالدموع ويشير بيده الى
« شيدو » كى ينهض • ثم تسرى الحياة فى نبرات صوته فيقول :
« لا ينبغي أن تقوم الحروب • فنحن فى ميسس الحاجة الى
السلام على الأرض • انهض يا شيدو ولا تنحن أمام أى من الناس •
لا تركع أمام أحد قط ! » •

ويبتعد أمينوفيس مزعزع الخطوات •

ينظر « شيدو » و « سىكى » كل الى الآخر وتتهامس الرفيقات •
لسوف أسرع فى أثره لأعبر له عن رأى : « انى معك يا أسينوفيس •
أرى ما ترى ! معك » •

وتتمسك « سىكى » بىدى وتجذبني قائلة : « ان الموكب الملكى
يراقبه ويسير فى أثره » • وأخيراً يتجمع النبلاء وكبار الكهنة حوله
كما تتكالب الوحوش حول الفريسة فلا أراه •

لا أدري متى وأين تستأنف الملكة الحديث • لهذا سوف أبصر
فى أعماق ذاتى لأتنزه فى دروبها وألهث وراء كلماتى • وسوف
أجمل الكتابة لتنقل الى القرون القادمة آثار اخناتون ونفر نيتى •
ويحبكى كذلك عن جبهما •

فأنا شاهد على هذه الآثار وهذا الحب منذ أن تمكن والدى
المجد والتحية لذكراه - تمكن من الحصول من أجلى على هذه الوظيفة
وقد حصل عليها بفضل ما كان يربطه بالمدير « توتو » من صداقة

ومودة • وكان لخلقتي القصيرة ووظيفتي المتواضعة الفضل فى الدخول
جلسة عند من يصنعون أحداث التاريخ •

الحب ؟ لم أعش الحب الا مرة ! من كان لديه القدرة على محبتى ؟
من كان بمقدوره أن يرتبط بخلقتي الدمية • تلك التى تنمثل فى
كيس من الشعير ذم بطريقة سيئة ! من كان يصبر على ملاطفة وجهى
المدهش ؟ مرة تراه مثيرا للضحك وأخرى تراه مبتلا بالدموع •
حقيقة الأمر ان هيئتى تفوق انفعالاتى ومشاعرى •

ورغم ذلك لا يمكن أن نقارن الحب بأى شىء • تلك العاطفة
التي تفرق وتعذب وتزيل نضارة الجسم وتذهب قواه • هذا الحب
الذى لا يفوقه فى القوة الا سحر المدينة التى لا تزول من الوجود •
الحب أكثر حتمية وصلابة من جميع الفلسفات • أتحدث من هذا
المكان كى يسمعننى الناس جيداً • أتحدث عن الحب المتبادل الذى
رأيتة وثيقاً فى المهديين « نفرتيتى » و « أخناتون » ؛ عن ذاك الحب
الذى أحببته فأضياء ذاتى وكيانى •

لقد اختص القدر نفرتيتى بأخناتون كما خصه بها • مرة
بارادة القدر ومرة بارادة الملكة « تى » التى كانت تبارك هذا الزواج
وتسعى الى تحقيقه •

ورغم ذلك كان والدى « أمينو » حذراً حيال هذه الثقة المفرطة
فى هذا الارتباط • كانت الملكة « تى » - كما كان والدى - تعتقد بأن
هذه الرغبة وثيقة الصلة بالعوامل المساعدة على قيام الامبراطورية •
وكان والدى يقول فى هذا الصدد : « من يستطيع ان يتنبأ بما تخبؤه
الأيام القادمة لهذه الأرض الشاسعة اذا ما تغيرت الأسباب ؟ » لكننى
فى النهاية أبارك هذه الأفكار الذكية •

وحين تتكلم نفرتيتى عن شبابها يتغير لون بشرتها • تحسبها

وكأنها خرجت لتوها من النهر منتعشة • تسير كما كانت تسير أيام الشباب • تبدو وفخذاها أكثر نضارة وحيوية • وتسير بخطى نشطة واسعة كما لو كانت ستطير من فوق الأرض ...

اننى مسرعة يا بوباستوس ! اجرى نحو « أمينوفيس » وليس فى مقدور أى شىء أن يمنعنى • سوف أطير فى كل الأرجاء • بين أشجار الحديقة ، وفى كل زوايا القصر • سوف أطير نحوه • واليه • لكن كبار كهنة « آمون » الذين عهد اليهم تربية « أمينوفيس » يلتفون حوله • وغالبا ما لا أجد مكانا أنفذ منه اليه • لقد عرفت فى الأمير تلميذا مجتهدا • عرفت انه متعطش للمعرفة الى درجة كبيرة •

كان الصير يواسينى • كان هو أملى لأننى عرفت من الملكة « تى » أنى سأصبح زوجة له • فعبرت لها عن موافقتى حين أومأت برأسى كى أخفى خجلى • ذلك الحجل الذى تجلى فى حمرة وجهى ، وحتى لا تنكشف دقات قلبى • وكان يمكن ان تسبب هذه المشاعر الواضحة قلقا لدى الملكة « تى » تلك الشخصية القوية الطاغية التى كان بمقدورها السيطرة على الآخرين مثلما تسيطر على أعصابها • وذات يوم وجدتنى فى مدرسة القصر • كانت هذه المدرسة مربعة بها عشرون بنتا من بنات العائلة الفرعونية وكذلك بنات الوزراء • ولما كانت لا تغلق أبوابها ، لهذا وجدت نفسى ذات مرة أمام أحد أبوابها المفتوحة •

كان المدرس يجلس أمامنا على حصير • كان طاعنا فى السن ضعيف البصر • ينحنى على الكتابة ليميز ما يقرأه • ولم يكن أسفا على شىء • فكان ضعف بصره أمرا غير ذى بال بالنسبة له اذا ما قورن ذلك بما عاد عليه من القراءة والكتابة • وكان يتطلع الى أن توليه مزيدا من الاهتمام وإن شاركه إعجابه بنفسه • وكثيرا ما كان

يقول : « لا شيء يفضل الكتاب • يفنى الانسان ويواريه التراب •
وبينما نرى الكتاب أكثر فضلا وخلودا حتى من قصر مشيد حسن
البناء » •

كان سيدنا يعرف الحساب والنجوم وقواعد اللغة والجغرافيا ،
وتاريخ الديانات • وكان كثيرا ما يردد « ليست الكتابة من أجل
الحفر على المسلات المقامة من الحديد ولا من أجل الأهرامات القوية ،
لأن بعضها تقوم الرمال بتغطيته شيئا فشيئا • كما ان البعض منها
يحتوى على حجرات يتسببها الناس • أما حينما تكون الكتابة جميلة ،
فإنها تظل واضحة سهلة القراءة على الدوام » •

وغالبا ما كان المدرس يعطينا دروسا لنحفظها عن ظهر قلب •
وكنا نقوم بترديدها على مسامعه • فلم يكن يشاركنا فى تلك
الصالة الا تلك الكلمات وقائلها •

أستشعر أحدا يرقبني لذا أدير الوجه نحو الحديقة • انه
أمينوفيس هناك فى الحديقة • هناك قرب الشجرة فى انتظارى •
لا أجرؤ على السير تجاهه • وتأتى « ميرينيه » كذلك فتراه • تضربني
بكوعها وتضحك وهى تضع كفيها على وجهها •

يسألنى المدرس أن أسمعه احدى القصائد • ولكى يسهل
مهمتى ترك لى حرية اختيارها • أنهض واقفة تجاه الباب المفتوح
المطل على الحديقة • هناك نحو الشجرة ، نحو أمينوفيس واليه •
اليه وحده أوجه الحديث •

« يا صديقى

معك أدخل أى مكان

فى صحبتك أخرج من أى مكان

قوى قلبك

وحيك يجعلنى مثله قوية

هيا انظر الى «

أترك مقعدى • يجذبني حضوره • اجتاز عتبة الباب ولا
يمنعنى المعلم من الخروج • أسير نحو « أمينوفيس » عملاق هو رغم
نحافة جسمه المفرطة • أحملق فى وجهه الذى لا يروق للمرفقات •
اقترب منه • الشفافة غليظة والعين ناعسة والذقن طولها زائد عن
الحد • وأمد اليه يدي •

لن يفرقنا أحد ! لا الكهنة ولا الرفيقات ولا حتى « سيكى » !
سنذهب تحت الأشجار السن متحدة : ستة عشر عاما • وتلتقى
يده بيدي • فتسرى فينا الحرارة • ها هي يده المحمومة تنتعش •
لا يهمس بكلمة ولا يسرف فى الكلام •

يتلاقى جسدا • تتناوبا نفس الرعشة • وتربطننا طوال
الدهر جذور فى الأرض عميقة ، وقريبا يعلن حبنا يوم مشهود •
ومرات أخرى يحدثنى وأحدثه • أصف له مدرسى ويصف لى
مدرسه • وسوف يأتى اليوم الذى يعرف فيه كل الناس - كل
الناس - فن الكتابة لم أفهم هذا • كنت ما أفهمه العمل والزمان
وفقط • كنت أعرف ان التعليم كائن موجود •

أذكر انهم كانوا يعطوننا ألواحا من الفخار لنكتب عليها ،
بدلا من الورق • وكنت أقول ان معلمنا دقيق وهو يعطينا الورقة
البيضاء • أصف له اهتمام معلمى الفائق بمساعدة كل تلميذة حين
تطوى الورقة على ركبتيها • وطريقته الدقيقة حين يغمس قلم البوص
فى المداد الأسود قبل أن يعطينا ذاك القلم • أصف له كيف ان كل
واحدة منا تلتقط أنفاسها حين تشهد ميلاد المكتوب على الورق •
كم من المدرسين يلزمون لنشر هذا الفن ؟ وأى عدد من المدارس ؟

ويسنوقفنى أمينوفيس قائلا : « ان اعداد المدارس والمدرسين
أمر حتمى • وسوف تقوم بما يلزم •

وهكذا يظهر الملك الصغير حماسا يجعلنى أدرك أن الكلمات
قد تتسابق متدافعة فى فمه • وفجأة يصفر لونه فيضغط على
ما بيده •

كنت أعلم أنه يرتقى على الأرض أثر نوبات ارتعاشة تصيبه
لكننى لم أشاهده من قبل فى تلك الحال • وكان البعض يرى فيه
رجولة منقوصة • والبعض الآخر يرى فى حالته تلك صفة من صفات
الالوهية • ولم يكن أى تفسير من هذين يروق لى • وما كان يشغلنى
هو أن أشاركه همومه •

تلك الهموم التى كانت تنفخ قسيمات وجهه وتمسح فكه
الفاغر باللعب ؛ فكان يصبح من أعماقه : هيا اذهبى لا تظرى ؟

ومع ذلك فلم يكن هذا مبعثا لنفورى منه • كنت أحب كل
خلية فى جسده المعصور • ذلك الجسد الذى تفترسه النكبات •
وهكذا كان يظل حتى يعبر ما يعيشه من الأزمات •

ولكن عينيه كانتا تتوسل الى راجية أن أتركه ونفسه • فكنت
أبتعد عنه وكلى اشفاق عليه •

وقد هدأ أمينوفيس من روعى بعد ذلك مؤكدا لى أنه تعلم كيف
يجتاز الصعاب والأزمات ، كيف يترك نفسه ويستسلم لأنفعالاته
الى درجة النسيان ، كيف يتملك عقله ويرتب أفكاره • لقد كان
يعانى من هذه الأمور • لكنه هذه الآونة فى سكون وهدوء •

وطوال الفترة الطويلة الماضية التى غاب فيها عن ناظرى ،
لم تفارقنى أفكاره ولا كلماته • لقد بدت لى الفكرة القائلة بأن تظل
الكتابة إحدى مزايا الكتبة وكبار الدولة ، بدت لى فكرة غير صائبة

لأن الأمر سوف يتغير حين يتاح لجميع الناس القدرة على التعبير !
« كل الناس ... » .

كانت هذه الكلمات تمهد الطريق أمام عامة الناس . ولكن
ماذا كان يرى أبوك - كبير الكتاب - يا بوباستوس ؟ .

كان والدى أمينو يعشق الملكية والتملك . وكان يستاء لعدم
تطلعي الى الثروة والأمجاد . فكان يردد على مسامعي : « لن تكون
موظفا مرموقا على الإطلاق . ولن تكون أبدا الرئيس لكثير من الناس .
كما ولن تخرج بتاتا من صفوف العامة ! » .

حاول كثيرا أن يطلعنى على أسرار الادارة لكثير من الاعتبارات ،
وحاول أن يعرفنى أصول تدريب الموظفين ، ونظم التجارة وقوانين
الحرب والأمن . وكذا ما فاجأنى بهذا السؤال : « ما حجم الفصيلة
بالنسبة الى جيش يتجه الى المعركة ؟ وكيف من قوالب الطوب يلزم
لبثاء مدرج ؟ ولكى يزيد فى الدقة يقوم بتحديد أبعاد هذا المدرج .
وكنت أظل صامتا فيفتاظ .

وكان يتنبأ لى بمستقبل متواضع لأن كل كاتب من الكتاب
لا بد له أن يرتقى فى وظيفته وان يزاوِل عمله فى مجالات أخرى
عديدة .

ويستسلم والدى « أمينو » فى النهاية مقتنعا بأن امكانياتى
تقف عند مجرد القيام بنسخ احدى القضايا أو كتابة قصيدة على
الورق . ولا شئ غير ذلك .

وكانت موهبتى فى الرسم ترقى الى رسم زخارف بالخبر
الأخضر والأزرق والأصفر . وكانت تلك الزخرفات تروق للناظرين .

ونظرا لتواضع مهاراتى ، عهد والدى فى النهاية الى المدير
« توتو » أمر تدريبي . فتكفل هذا برعايتى مستبشرا بأن قزما مثلى

سوف يجلب له الحظ : فكان يكلفنى ببعض الأعمال الكتابية .
وكان يتركنى ألهو من وقت لآخر كى ألهو وألعب .

وبعد أن عرف هذا المدير أن صلتى وثيقة بالأمر « أمينوفيس »
طلب منى أن أقوم بتسجيل كل شىء عنه . لأنه كان يكن للأمر كل
اخلاص ومحبة .

وقد أزكت هذه المذكرات موهبة الملاحظة عندى حتى أن
نصوصا كاملة تواكبت الى ذاكرتى حينما اختفت الكتابات التى
سبق ان دونتها عن مأساة هدم المدينة « مدينة أخناتون » تواكبت
أمام ناظرى فى النهاية .

وساعتها كان يكفينى ان أعيد تسجيل الماضى على هذه الملفافة
من الورق .

ومنذ ذلك الوقت شملنى الوزير « رعمس » بعطفه ذلك الوزير
الذى كان يؤمن بفرعون المستقبل أيما ايمان . وعلى العكس من
ذلك ، كان رجل الدين « جاديه » لا يكف عن اضطهادى .

فلمجرد أن اعترضت طريقه أخذ يعاملنى معاملة سيئة كما
تعامل « الجرة الفارغة » ، و « كالرأس بدون ذاكرة » وكان يهددنى
بقرع العصى اذا رآنى أسير فى أثر الملك الصغير .

ولحسن حظى كنت ذلك المضحك الذى لا خطر منه . لهذا كان
عندما يقول كلاما جارحا أو يتوعدنى ، كان سرعان ما يهدأ وينسى
ما توعدنى به .

« كنا فى النهاية قد عثرنا على أحد الممرات الموصلة الى مكان
منعزل نلتقى فيه بعيدا عن الأنظار . وكان علينا ان نبتعد عن أعين
الفضولين . تلك العيون التى كانت تراقبنى لتسبر غور أعماقى

وترى فيها انطباعات نظرات أمينوفيس الذى كانت جفونه تبقى مغلقة
كمن يريد ألا يفتقد الدموع الغور التى تمتلئ بها عيناه .

كنت أراه منتظرا ساعة الغسق ، أراه جالسا فى انتظارى .
كنت أراه مائل الرأس فانحنى على شفتيه المكتنزتين ، وبطرف
سبابتي أتحنس فمه الهرمى . أتحنس فيه بسمة خفيفة .

كل شئ فىك « يا أمينوفيس » حسى ومضى . طرف شفتيك
وفتحة أنفك المستديرة وأيضا نظرتك الشاردة الدامعة . ويربط
بين هؤلاء جميعا نوع من الغياب والتهيه ، نوع من الانتشار نحو عالم
غامض مجهول بلا حدود . يشاركونهم فى هذه السمات وجهك البارز
الى الأمام مثل مقدم السفينة المدبب . وكذلك الذقن الدقيقة والبشرة
التي يكسوها عرق خفيف ؛ ذلك العرق الذى تسير عليه أمواج رقيقة
والتي بدورها تتيح الفرصة لظهور دوامات بين هذه الأمواج .

كل شئ فى أمينوفيس له جذور ممتدة ، تمتد فيه الى الأعماق .
أحس به أنامى وبجانبى فى كل لحظة . أحس به يجذبني . يقلقني .
أحس بأن حلمه الذى بناه ثم تهدم يذيب كل حواسي . كما المس
فيه بريق الحكمة والجنون المطلق كذلك .

ان قسوة الزمان علينا أمر لا تقدر على تصوره ! وبلا مقدمات ،
يخذلني « أمينوفيس » عن الموت ، عن الآلهة ، عن العدالة والسعادة
والسلام . . .

لقد طارد اليوم الآخر تفكير أجدادنا على الدوام . لكن أحدا
من هؤلاء لم يرجع الى الدنيا ليخبرنا كيف يحيا وأى شئ يحتاج
اليه الأموات . ان الحياة الدنيا ليست الا صدى لحياتنا الدنيوية .
ولكن هل توزن النفس بموازين . مثل موازين الدنيا ؟ وهل يوزن
الخير والشر ؟ .

لم يكن أمينوفيس ينتظر الرد على هذه التساؤلات لأن أحدا منا لا يملك الإجابة عليها . لقد سأل هذه التساؤلات ليحرق بها أرضا شاخت حتى تنبت هذه من جديد . ولكى يشق فيها خطوطا جديدة .

الآلهة فى أيدي الكهنة . انهم يجعلون من الموت مصيدة للأيقاع بالناس .

لقد وجدت فى هذه الكلمات بعض تأثيرات الملكة « تى » تلك التى لم تكن تفارق ولدها كما قالت « سيكى » .

كانت الملكة « تى » تحاول دائما أن تحرر البلاط من وصاية الكاهن « آمون » . وكان « أمينوفيس الثالث » يشور لتسلط الكهنة الزائد ، لكنه لم يتخذ فيهم قرارا وذلك لانشغاله بهواية الصيد . وكان غيابه الزائد سببا فى احساس كبار رجال الدين بأهميتهم ، فزاد تأثيرهم فى الحكم الى درجة كبيرة .

ورغم مزاج الملكة المتميز بالانفعال ، الا أنها لم تتخذ بشأنهم قرارا لأنها لا تتعدى صفتها كامراة . ولم يكن وحيدها ملك المستقبل ، غير صبى عليل يتهده الموت . وكان هذا الفتى كثيرا ما يردد :

« ان امبراطورية الأموات لا تكفيهم . يتطلعون ويطمعون فى امبراطورية الأحياء أيضا . ان كبار الكهنة يمتلكون أراض لا حصر لها . انهم يمتلكون الماشية بالآلاف . ولديهم من الفلاحين والعمال الجموع الغفيرة . ان لهم حراسا يدافعون عن مصالحهم ونظارا يديرون شئون حقولهم . مخازنهم بالحبوب مملوءة ومحلات معبد الكرنك بالمحاصيل مكتظة .

لقد شيدوا المعابد التى يعرضون فيها الفائض من الانتاج .
وأغننتهم الغزوات التى قام بها الفراعنة كما استولوا على مدخرات
الناس . لهذا قاموا بتشديد المعابد الحديثة والحصون المقدسة .
ونحتوا المسلات المغطاة بـقائق من الذهب . والناس يدينون لهم
بالولاء والخضوع الأعمى خشية الآلهة والموت .

ويستمر « أمينوفيس » قائلا :

أمرت الملكة « تى » بإقامة معبدتين فى إحدى حجرات القصر
وذلك من أجل إله الشمس « آمون » . وسوف أصبحك الى هناك
ذات يوم .

وفجأة ظهر أن أحدا وراء أوراق أكاليل الزهور ، يقف يتسمع
ما نقول . انها على ما يبدو الملكة « تى » رأيته من رداثها وتصفيقه
شعرها ، لكنى رغم ذلك لست على يقين من ذلك .

ويتابع أمينوفيس حديثه :

« سأقوم ببناء معبد فى الكرنك من أجل الإله « آتون »
وسوف أقدمه اليه بدون وجه . سيكون على شكل قرص من
الذهب : علامة سوف يستطيع كل من على وجه الأرض أن يتعرف
عليها . وسوف تنتهى أشعتها بإيدى تهب الحياة للخلائق . أيادى
تحمى وتحنو .

ويعطينى أمينوفيس ورقة من البردى بها بعض الرموز .
أعطانيها وهو يقول : « احتفظى بهذه . انها بداية نشيد الشمس .
وسوف أكمله بعد فترة :

الشمس حية من قديم الزمان ...

والله وحده خالق الكائنات ...

الطريق مفتوح لأنك هناك ...

من فى الدنيا رأى الها له وجه انسان أو رأس حيوان ؟ لكن
كل انسان رأى الشمس ويراهـا وسوف يراها • الشمس تهب
الحياة وتسكن أعماقنا وتتحدى الموت • تشرق للجميع • للجميع •
ويخيم المساء فأطوى ورقة البردى وأبتعد •

— الطريق مفتوح طالما أنت هناك !

ولعدة مرات ، كنت أنا الذى أنتظر أمينوفيس • كان قلبى
يركض حينما أراه • تغزوني رعشة سعادة • ولم أفتأ أستعيد
هذه الرعشة طوال السنين من أجل أن أستعيد معاشة هذه
المشاعر من جديد • وحين أسترجع الماضى أظير نحو ذراعيه التى
يفتحها ليضمنى الى صدره ، فأضع رأسى على كتفيه بنفس الشوق
واللهفة •

وكانت هذه المقابلات المتعددة لا تعجب المربية « سىكى » ،
فكانت تقول ان الملكة « تى » تحبنى دون شك ولكنها لا ترضى عن
هذه اللقاءات الطويلة المتعاقبة •

وكان شبابنا الملهب ، واشتياق كل منا للآخر كذلك مبعثا
لاطمئنان الملكة • ومع ذلك كانت تسعى الى أن تكون الوحيدة التى
تشارك ولدها أفكاره ؛ وتتعرف على مقاصده ونواياه •

كان أمينوفيس يتحرق شوقا الى لقاء شعب مصر الذى لم
يكن يقرب القصر الملكى الذى كان يحجب الفرعون عن الشعب •
أنا على يقين أن أمينوفيس كان يصحبك خلال أمسيات كثيرة هناك
عند أبواب القصر ويسير بين الناس فى شوارع طيبة • وذلك

رغم أوامر الوزير « رعمس » التي كانت تمنع ذلك بصرامة . . .

فى تلك الأمسيات ، وتحت جناح الظلام ، كان أمينوفيس وأنا - بوباستوس - كاتبه الخاص ، كنا نغادر القصر ونمر بالحدائق سائرين نحو واجهته العجيبة الفخمة . كان هذا القصر رائعا كما لو شيد من الهواء والحجر بجوار النهر . وكانت تحيط به الصخور الزاهية الضخمة من كل جانب . وكانت روعة ألوانه الذهبية تتجلى بوضوح مع دوران الشمس .

كنا نسير بمحاذاة صفوف أبى الهول ، فى الطريق الذى يصل بين القصر والمعبد . ورويدا رويدا كنا نجتاز الأشجار الملكية لنصل بعد ذلك الى أشجار السنط ثم الى أشجار تعانى العطش ونقص الغذاء . وكنا كذلك نسير بدءا من أحواض ورد النيل الضخمة الى جدول مياه زرقاء صافية ، الى طريق منهك لا يجد من يحتو عليه ويرعاه ؛ ومن مبان عالية شاهقة الى مبان أخرى ترتفع قليلا عن سطح الأرض فى شكل آنية . وكنت أسير أمام الأمير كرجل يصطحب طفلا فى حوارى المدينة . فقد كنت على دراية بدروبها الضيقة .

وكان الأمير أمينوفيس يغطى جزءا من وجهه حينما يكون قريبا من القصر . وحينما يبتعد عنه كان يسير فى حرية . ولم يكن أفراد الشعب يكتشفون حقيقته . وفى قلب المدينة لم يغامر أحد بالإبلاغ عنه أو يحاول التعرف عليه . وكان المدير « توتو » يعلم بخروجه ليلا للسير فى أرجاء المدينة ، لذا أعد له وزرة من القماش من نسيج متواضع . فكان هذا مناسبا له من أجل إخفاء شخصيته .

كنت أصطحب الأمير وسط العامة فى جميع الأماكن .

أصطحبه وسط هؤلاء الذين أنتمى اليهم . فكنت أحس أنى بين أهلى وأهلهم . أضرب كل شىء بالأقدام . ولم يطب لنفسى مثل هؤلاء الناس أن أتطلع الى أى طموح . هؤلاء الذين كانوا يعانون الكثير من الحرمان . وأستمع مثلهم كذلك بالقصص الساخرة من كبار القوم وساداتهم والتي توجه النقد الى نقائص حياتهم . ورغم أن مزاج العامة غير سسام الا أنه يعجبني فى بعض الأحيان . لا لشيء الا لأنهم سليمو الطوية لا يعرفون المكر كما لا يعلمون الحبث .

وامعانا فى اخفاء شخصية أمينوفيس ، كنت أخبر الناس أنه أخى الأصغر « أوتا » . وأنى أفضى اليه بأسرار الكتابة لأنه قليل الخبرة فى هذا المجال . وأنه يعتز بالعمل اليدوى ويهفو الى الارتقاء فى مهنته على النقيض من أغلب الكتاب الذين يحتقرون العمل اليدوى .

ها نحن ندخل عند الحداد الواقف أمام فوهة الفرن على الدوام . ثم عند تاجر الأثاث المصنوع من الأبنوس ؛ ذلك الذى فرغ لتوه من صناعة أحد الصناديق . وبعد ذلك ندخل الحانات العتيقة ؛ هذا محل صانع الأحذية الذى يعرض الكثير من الصنادل يبين لنا كيف يجهز الجلود بالزيت والشحم ! وهذا محل الآنية ، يعرض فيه صاحبه وهو يضحك بصوت عال أمفورة مستديرة ولها بطن كبير . وهنا يقول أمينوفيس تمثيلا للدور فى اخفاء حقيقته : « سوف تجعلك هذه الأمفورة متغطرسا يا أخى بوباستوس ! » .

وكنا نزور مراسم الفنانين والنحاتين وصناع الحلوى والأسلحة . كان هؤلاء يعرضون منتجاتهم فوق عارضات . وبعد ذلك اتجه الى مدير الأعمال الذى عليه أن يقيم المنتجات ويحكم بصلاحيته أو بعدم جودتها . وكانت هذه المنتجات مزيجا من

التماثيل والأواني الفخارية والمرآيا والحلى والسهم • وبعد أن يقوم ذلك المدير بتفقد هذه المنتجات ، تعرض بعد ذلك فى منزل الالهة والأموات •

وكم كان الصناع يشتكون من تعسف هؤلاء قائلين : « لم نسمع قط كلمة ثناء أو مديح تبعث الأمل فى النفوس • وكل ما نسمعه أن هيا اعملوا سواعدكم يا رفاق ! » هذا كل ما يعرفون قوله •

ولم يجرؤ أحد أن يشتكى لأنهم حذفوا اسمه من قائمة الصناع ، بينما كانت أسماء الرؤساء تبقى فى سجل القائمين بالعمل فى هذا المضمار على الدوام •

وكان الأمير الشاب يبدى إعجابه بالكثير من الإبداعات والفنون • وكان يتألم من معاملة أصحابها بهذه الطريقة المجحفة ولعدم مكافأتهم على حسن صنيعهم فكان يقول : « لسوف أعطى لهذا الشعب المسكين مكانته ! هذا الشعب الملك » •

و ذات مساء مررنا عند « زوبر » الحلاق • كان عائدا من دورته اليومية • عرض على هذا أن أحلق لحيتى وأن اضيئ وجهى بإزالة شعرات غير مقبولة • وقد قام بهذه المهمة فى ضوء شعلة حملها « أوبا » وهو جالس على ركبتيه ، بينما ظللت واقفا لم أجلس نظرا لقصر قامتى •

على الأرض وقريبا من الجمع ، كان « أمينوفيس » يمسك بالشعلة فى يده ، كان يبدو شاهما طويلا يناهز عنان السماء ليقترب من النجوم •

ولما كان هذا المشهد فريدا فى ذاته ، فقد تجمع الناس فى هذا المكان الصغير • وقام « زوبر » بالقاء أبيات شعرية مرتجلة

تسخر منى فيضحك الناس • فكنت الضحية والفداء • لكننى حينما كنت أهتمدى الى رد سريع أو الى اجابة مفهومة ، كان الجميع يصفقون للتحية •

وكنا أحيانا نتوجه الى شاطئ النيل حيث البناءون • كانوا سجناء قادمين من الامارات المختلفة • وكانوا بمثابة قوة عاملة ذات وزن كبير : يقومون بصناعة الطوب من الغرين الذى جلبه النيل ، بعد خلطه بالرمل والقش المقطع • وأحيانا أخرى كنا ننتظر عمال المحاجر العائدين من الصحراء فى اعياء شديد •

كان الأمير يستمع اليهم ويسألهم ويندهش لردودهم • اذ رغم قربهم من المعابد والقصر ، فقد بلغوا مبلغا من البؤس والجوع • وذلك ما كان يفقدهم الاتزان والصحة •

وكانت طيبة فى ذلك الوقت، ملتقى لبلاد العالم فكانت الشرايات تمر بها من الدلتا وحتى الشلالات • وكذلك كانت تصل اليها التوابل وأخشاب الأرو من الشرق وبخور بلاد « هونت » كما كانت ترد اليها منسوجات سوريا الفخمة والاسلحة والأواني المزخرفة من « فينيقية » •

كما كانت ملتقى لسكان بلاد النوبة وآسيا وتجار « فينيقية » وسكان جزيرة كريت وحدائق فارس وجبال سوريا والبرابرة القادمين من الصحراء والبحر والمرتفعات • وكان أمينوفيس يستمع الى هؤلاء القادمين ، الى الكهنة الذين يعبدون آلهة أخرى ، الى الصيادلة الذين يعدون العقاقير المختلفة والى الشغراء الذين يتغنون بالقصائد المختلفة •

وكان الأمير يتعرف فى وجوه الناس الذين قابلهم فى المدينة والبلاط على ذلك الانسان القادم من هناك ، من بلاد العالم المختلفة •

وصفت الكثير خلال الأيام الماضية وكتبت كذلك الكثير .
أما الآن فالوقت متأخر لأن الشمس غربت خلف الشاطئ الصخري
لهذه المدينة « الميتة » .

يخيل الى أن جسرا قد أقيم فوق الزمان ليربط بين الفرعون
الشباب وبين زوجته التي تناهزه في العمر ، ولكي يكون كذلك
همزة وصل بين الشباب « بوبا ستوس » وبينه نفسه في هذه
المرحلة المتقدمة من العمر .

وخلال هذا الحوار الذي يدور بيني وبين الملكة ، كانت
روحانا تتقدمانا وتقودانا القهقري الى الماضي . وكنت أسأل نفسي
أين نحن وأين نكون ؟ أين أكون في هذا الجسد الذي هناك ؟ في
هذا الجسد القريب ؟ في الحاضر تتقدم خطوة خطوة كي يسير
الزمان . . . أم أننا يا ترى في هذا الحلم الذي لا نكف عن تكرار
كتابته ؟

وأسأل نفسي عما اذا كانت قصتي قد حدثت بالفعل .
وأحيانا كان يراودني الشك في وقوعها لكن هذه الاحجار التي في
معيتي الآن دليل دامغ على حقيقة ما نقول . ورغم ان هذه الاحجار
مهشمة متناثرة فهي رغم ذلك شاهد لصالح مدينة الأفق ولصالح
من اقاموها .

وكانت الملكة « تي » تعلم تماما ما يدور في خلد ولدها أمينوفيس
لأنه لم يكن يخفى عنها شيئا . لهذا كانت تعلم بجولاتنا السريية
المتخفية . وكان لأفكارها التي أوجتها اليه أهمية بالغة تفوق ما كانت
تتمناه . وكنت أردد دائما حينما كنت أتعبد للاله « آتون »
وأناجيه : . . .

« ان مكان الشمس لا يوجد في الظلال » وكان الدوار يصيبها .

حين كانت تسمع هذه الكلمات • كانت ترغب فى أن يغير أفكاره •
لا بخصوص الآلهة وحدها وإنما تجاه الناس كذلك •

وكثيرا ما كانت تقول لى : « انك سوف تثير غضب النبلاء •
انهم سوف يتقدمون بالشكوى الى كبار الكهنة • وسوف تنهزم •
ذراع الاله آمون لأنه لا يمكن لشيء أن يقاوم غضبهم • وسوف •
يستخدمون كل ما يملكون من قوة لاجهاض هذه الفكرة • • حتى •
السحر » •

وكنت أقول لها : انه كذوبة ! السحر كذوبة ! انه سلاسل
تقيدها • أريد الها فاتحا ذراعيه ! الها لا يخاف ! الها تعترف به
كل الدنيا وتسلم له • فكانت تقول :

كل قوم يتمسكون بالهم الخاص • فأقول : هذا الاله
سيغمر العالم كله بعطفه وحنانه • وان لم يفعل ذلك فأين ستكون
رحمته ؟ وأين سيكون عطفه ؟ وأين حبه ان لم يبسطه على كل
الخلائق ؟

وكان وجه الملكة « تى » يزداد ضجرا وضيقا • كانت تهز
رأسها قليلا كما كانت تحرك ذراعيها القويتين فى كل اتجاه •
وكانت فى مسلكها كمن يريد اختلاق الأزمات •

وكان أمينوفيس - رغم ما يوحى به مظهره من الضعف -
يواجه تصرفاتها بهذه الكلمات : « سوف أسير فى الطريق الى
النهاية • وكانت تنظر اليه وهى تقول باشفاق عليه : ستكون •
وحدك • فيرد قائلا : لن أكون أبدا كذلك • فتسأله وكأنها لم تسمع •
ما يقول : ماذا تقول ؟

فيرد مستطردا : ستقف نفرتيتى بجانبى حتى النهاية •

شاخ أمينوفيس الثالث وبلغ الخمسين من عمره . وانحطت قواه عقب مرض قرب نهايته . وكانت رؤيته لولده السقيم مع شعوره بتدهور صحته تدفعه الى المضى فى تأهيل ولده وتدريبه على شئون الحكم .

وفى تلك الايام وردت أنباء عن حدوث اضطرابات وقلقل فى الممالك الشرقية ، فنصحته مستشاروه بان يعقد اتفاقات مع مملكة « ميثان » تلك الدولة الواقعة بين البلاد الشائرة والغزاة القادمين من بلاد الحيشيين .

أرسل الفرعون سفيره الى « تسراتا » ملك ميثان يطلب منه ان يزوج ابنته الكبرى « تاديهييا » الى ولده ولى العهد « أمينوفيس الرابع » .

وكان والدى أمينو: أحد أعضاء الوفد الذى سافر لخطبة العروس حيث كان على علم بقوانين البلاد المجاورة أكثر من أى شخص آخر . . . ولأنه كان يؤيد وجهة نظرى بالتعاطف مع فكرة زواج الأمير من نفرتيتى ، عمد الى اخفاء مهمته ولم يحدثنى بصدددها الا حينما عاد بعد انجازها .

وبالفعل لم يتأخر « تسراتا » فى الرد ، وأرسل الأميرة « تاديهييا » الى مصر . وقد رحب بذلك أيما ترحيب .

وكان أمينوفيس الثالث يخشى أن يصعب عليه اقناع الملكة « تى » بأهمية هذا الزواج ، خاصة وأنها قامت من قبل باختيار « نفرتيتى » ابنة اختها « ستيامون » لتكون زوجة لولدها الأمير .

لهذا سعى الى اقناعها بسرعة يشوبها المكر والدهاء لأنه كان يعلم قدرتها على التخطيط والمراوغة عندما تتعامل معه ومع كبار الكهنة .

لكنها - وعلى غير ما كان يتوقع - باركت هذا الاتفاق تحقيقا
لرغبة زوجها . كما أيدت رغبتها في اعلان القرار بنفسها الى
نفرتي . وعملت على ابعادها عن القصر فترة من الزمن .

كان كل الناس يعلمون بهذه الخطبة يا بوباستوس ! حتى
سيكى ! تلك التى لم تجرؤ على التحدث معى بشأنها . وكذلك لم
أكن أعرف سرا لابتعاد امينوفيس فجأة .

كنت أبحث عنه فى يأس . ولم أمل انتظاره هناك فى نهاية
المشى . وكنت أراه سائرا فى ممرات الحدائق وسط الجموع من
الناس دون أن أستطيع التحدث اليه .

وذات صباح دخلت الملكة « تى » فى رداء أبيض متموج ياقته
عريضة فوق الكتفين ، لونها ذهبى وازرق . دخلت لتسوق الخبز
الى مسامعى بلا مقدمات . وأضافت أنه لا ينبغي أن يعترض أحد
على هذا الزواج الذى سيؤدى الى انقاذ البلاد من مخاطر الغزو ،
كما سيكون من نتيجته انقاذ الفتى امينوفيس من خطر داهم .
لم أجد ما أقوله ردا على كلمات الملكة .

كنت باردة ميتة فى الوقت الذى كانت تطلب فيه منى أن
أتماسك . وبعدها أخبرتنى أنها اعطت أوامرها لتجهيز مسكن
فسيح لى كى أقيم فيه . وكان ذلك هو المسكن الذى كانت تعيش
فيه والدتى « ستيامون » ؛ تلك التى حينما جاء ذكر اسمها على
لسانها توقفت الكلمات فى حلقتها وضمتنى الى صدرها والدهوع
تنهمر فى عينيها . ثم قالت أنها لن تكف عن زيارتى للأطمئنان
على .

من الصعب أن نسبر غور القلوب يا بوباستوس ! لقد كنت
واثقة انها كانت تحبنى حبا كبيرا الى تلك اللحظة .

« ويوم وصول « تاديهييا » كنت بين من كانوا يتزاحمون فى الحداثق من أجل رؤيتها . وكان يتقدم الموكب أحد مدرسى « أمينوفيس » المدعو « آييه » والفتى « حورمحب » ضابط التشریفات . يومها لمحت العروس تسير منكسة الرأس ، كانت تسير بين نساء القصر ورجاله . وكان الجميع فى ملابس تزينها الشرائط وأشغال الابرّة .

كانت رقيقة رشیقة ، ترتدى الحلى وتمسك بالتمشال « اشتار » آلهة الشفاء وكان « تسراتا » قد بعثه الى الفرعون « أمينوفيس الثالث » لينعم علیه بالشفاء .

كانت العروس فى الثانية عشرة من عمرها . ضعيفة هزيلة . وقد بدت علیها علامات التعاسة حتى انى أمسكت عن الحقد علیها . وكنت فى تلك الأيام أعرض على شفتى من الغیظ حتى ان الدماء كانت تسيل منها لمجرد تذكرى أن غیرى ستكون بین أحضان أمينوفيس . لكنى حينما رأيت هذه الطفلة ، لم أجد أثرا ولا مبررا لغضبى . وصارت آلامى عادية لا تبلغ درجة الهلع .

« أيتها العروس « تاديهييا » الا يمكن أبدا أن آكن لك أیه احساس بالكراهية حين تسيرين وسط العديده من المحيطین فى اتجاه كشك الأبهة والسلطان ؛ ذلك المكان الذى يضم الأسرة الملكية . فأنت صغيرة لا تعرفین من أمرک شیئا » .

وهناك أمام الكشك ، لا أرى أمينوفيس . انى على یقین انه سوف يظهر لفترة قصيرة من الزمن وسط الأهل ثم يغادر المكان ليهبط درجات السلم قادما نحوى وخطاه ثابتة . انه لن یعیر هذا الأمر اهتماما . وسوف تتحول هذه الأفراح الى شیء آخر وسيصبح هذا البذخ رمادا . وسيمسك كل منا بيد الآخر وتذرف الصغيرة « تاديهييا » الدموع التى لن تلبث أن تجف .

وهذا في الحقيقة خاطر يراودني ، لكنه لم ترد الى حتى الآن .
رسالة منه بهذا المضمون ! وربما يكون قد تحول عني وعن محبتي .
وعن رغبته في أن أكون رفيقة حياته . لكن الصمت خيم هناك .

وتبدأ العروس في السير بخطى أكثر اتساعا . منكسة الرأس .
.. وقد وقف أمينوفيس ينظر الى الناس قبل ان ينظر اليها . ترى .
هل يبحث عني بين الجمع ؟

لا ! ها هو يسير نحو الميثانية الصغيرة ، وينزل درجة ، ثم
درجتين ، عيناه الى الأرض والعروس تضع التمثال الصغير بين
يدي الأمير . وأخيرا ترفع وجهها نحوه

وأخيرا أجدني في صحبة أمينو هناك على المصطبة . جالسين .
هناك وراء العائلة الملكية أمام الأميرة . لقد رفعت عينيها في وجه
الفتى « أمينوفيس » وما لبثت ان أدارت وجهها فجأة عن خلقتة
الدميمة : رأسه طويل ، عيناه ذابلتان ، والدقن طويل كذلك .
وأخيرا قامت القصيرة الصغيرة وأردافه العريضة . وكل هذا لا بد
أن يصيب كل من يراه بالدهشة حين يقابله أول مرة .

وتتلفت العروس عدة مرات وهي خائفة باحثة عن ملاذ تلجأ
اليه من بين أفراد بلاط والدها . وساعتها وضع أحد أقاربها يده
على كتفها ودفعها الى الامام بلطف مع اصرار .

« كنت أذهب الى الميدان الكبير ، هناك وسط الحقول .
ذلك المكان الذي فيه أبعدونني حتى تتم مراسم الزواج . ورغم ذلك
كانت عيناى تتعلقان بالحياة . وكنت أعانى الكثير بسبب هذا
البعاد عن « أمينوفيس » جرح كنت أحسب انه إلّام منذ مدة ،
لكنه في الحقيقة جرح يدمى لأوهى الأسباب ، فمجرد ذكره العابرة
تثير آلامى ؛ رائحة مذاق شفتيه ، تأكيده على حبي .. »

كنت كالطائر الذى طار سريعا ثم هوى داخل شبكة الصياد .
كنت أعرف ان ذاكرتى تنصب لى الشراك . ومع ذلك كنت استسلم
لهذه الألاعيب والخدع وأقع أسيرة فيها .

لم أكن قد خلقت كى أعيش بلا حب جياش . وليس لدى
كلام يبعث الأمل فى قلبى منذ أيام وشهور ، لكنى لا اتصور ان
ينخدع « أمينوفيس » أو أن يتراجع عن ما لديه من أفكار صالحة
ليسير فى برنامج الدينى .

وعندما استيقظ فى الصباح أتجه الى الساحة . وهناك بعيدا
عن مراسم البلاط ، أقوم بالتنزه فى حرية مع « سيكى » . انظر الى
الوادي الأخضر . أتعرف على سكانه . فهؤلاء هم الذين سيعملون
على تبديد ما لدى من الآلام والهموم على مر الأيام .

أرض مصر المنبسطة الحنون ، لا تحجب الهضاب فيها الأبصار .
فتبدو الأرض وكأنها تندفع نحو الصحراء بدءا من ضفتى النهر .
انها هناك ، هناك أمام ناظرى . وسوف تعلمنى هذه الأرض الكثير :
سوف تعلمنى حنان المياه ، وصحبة الحيوان ، كما سوف أعلم منها
صداقة الشجر وسعادة الحصاد . . وفوق كل هذا وجه شعبها .

عشت فيها دورة الفصول : فصل الفيضان ، وفصل ظهور
الغرين والأرض ، وأخيرا فصل الحصاد . وقد شرح لى أحمد
المزارعين أن هناك أياما ثلاثة : أيام جميلة ، وأيام خطيرة والثالثة
أيام معادية .

وقد شاهدت بعينى فصل جمع العنب وتأملت العاملين فى
جمعه . كما رأيته فى معمل النبيذ . تأملتهم وهم ينشدون
الأغاني فى منحة عازفى الموسيقى . وعرفت أن الانسان بمقدوره
أن ينسى وأن يحس بالجوع . هناك عرفت بيوتا من الطين . بيوتا

سمراء من الداخل والخارج • كما اعتدت على رؤية عمل الفلاح
المرهق • ذلك العمل الذي يبدأ مع اشراقة الصبح ولا يحده
الا قدوم الليل •

رأيت أحد العمال تحت شجرة نحيلة • كان التعب قد طحنه
فنام • رأيت وسيداه واقف يضرب كفيه ليوقظه بقوله : « قم من
الأرض والا أدخلتك فيها الى الأبد ! » •

راقبت الفلاحين وهم يحصدون السنابل بالمناجل ذات اليد
القصيرة التي أجيد صنعها من أجل الحصاد • وكانت وراءهم
سيدات تجمعن حزم القمح فى السلال •

وسمعت عجوزا تطلب حزمة من هذا القمح فى ساعة الغسق •
ومساء وراء مساء كنت أعود بلا شيء • لا تقل انى عديمة الخبرة •
لأنى رجعت من الحقول ويدي فارغة • فى هذه المرة استسلم الحارس •
ولم يعترض نظرا لنفوذى وتأثيرى • لم تكن « سيكى » تحب ذلك •
وقد وجدت صعوبة فى اقناع الحارس بأن السرقة ليست الهدف •
من قدومنا •

داعبت الحمير الرمادية اللطيفة ، داعبتها وهى تركض بخفة
مشيرة سحابات الغبار رغم ما تخمله على ظهرها من سلال مليئة الى
حافتها • واقتربت من الشيران الضخمة راسها • وكان الراعى
يحدثها بصوت منخفض :

« ادعس القش جيدا يا أخى لأنه وحده هو الذى يبقى لنا •
وسوف يأخذ السادة الحبوب » •

وسمعت بإذر الحب يتغنى بجمال أرضه الغرينية المنبسطة
حيث لا عشب ولا حصباء • سمعته يقول : « جميلة • جميلة أكثر
من أى شيء يا صاحبتى الندية • ها أنت تعودين ! » •

ورافقت جاريث الأرض وهو يمسيك المجرات بيده . يلهب
الماشية بالسوط ويسوقها بصيحات تنبعث من أعماق جوفه .
ورأيت عملاقا يحمل عجلا على كتفه ويعبر به إحدى القنوات
الصغيرة . واستمعت الى شكوى أحد الرعاة بينما كان واقفا بين
خرافه .

عرفت الرفق من العاملين بالحقول . عرفت كرم الضيافة .
شاركتهم فطائرهم مع الخس . جلست معهم فى أكواخ بائسة فيها
ينامون بجوار المواشى . أكلت التين مع هؤلاء . أكلت قطع البطيخ
الأصفر كما شربت معهم عصير البلح .

كما صرت على دراية باستغلال رجال الاقطاع لهؤلاء . علمت
أنهم يوجعونهم ضربا . وغالبا ما كان الكتبة سببا فى ايذائهم -
معذرة يابوباستوس ! . ومثلهم فعل مساحو الأراضى وجامعو
الضرائب .

وكان هؤلاء يأتون للاستجواب . للقياس وتدوين الحسابات
والأوزان . كانوا يأخذون أحسن المنتجات فكانوا أكثر سذوقا من
قطعان القوارض وأسراب الجراد والطيور ناقرة الثمار . هكذا
وصفهم الفلاحون البسطاء .

مشيت فى دروب تحيط الزراعات وفى طرقات تسير مع
النيل . ومشيت كذلك فى طرق أخرى تقود الى المستنقعات وأحيانا
ما كنت أسير بمفردى وسط حقول تحفها نباتات برية ، وحين
كنت أقرب هذه النباتات ، كانت تطير سحابة كثيفة من طائر
السمان فوق رأسى .

أعرف صلف بعض الكتبة الذين يطمحون الى نيل الحظوة عند
سادة القوم . وأعرف عقلهم الرياضى المدقق . كما أعرف استشعارهم
السعادة فى اثاره الخصومات والمشاحنات .

لقد اعطاني والدي « أمينو » كتابا عن الملكية . ذلك الوالد الذي لم يكن يقرأ أفكارى . وكان أحد فصول هذا الكتاب عن وظائف الكتبة المختلفة المتنوعة . وكان يقول دائما : « ان الادارة تعاني من التضخم » .

تعلم يا ولدى الحديث من أولئك الذين يجيدون الاستماع ؛ فهناك غرف كثيرة فى بيت الحياة الآخرة للرجل الذى يظل لسانه متواضعا ، وسيفاً قاطعا للذين يحبون التظاهر بين الناس .

وقد اتهمت بالتدليس فى حراسة الشاب أمينوفيس . ووجه اللوم الى لأنى أحد المؤمنين المخلصين لأرائه الخيالية . لهذا باعدوا بينى وبينه ولم يسمحوا لى أن اشترك فى بلاط نفرتيتى القليل العدد والذي أقصوه بعيدا عن القصر .

ثم عينت بعد ذلك فى وظيفة تسببت لى فى الكثير من المتاعب . وكانت مهام هذه الوظيفة أن اشرف على العبيد الذين يشقون الترع ويمهدون الطرق ويشيدون المستودعات والأرصفة .

وحينما ظهرت بواذر الشفاء على « أمينوفيس الثالث » أخذ يتطلع الى السلطة والمتعة . فأدخل كثيرا من خليات الملكة « تى » فى الحريم . وبعد ذلك ولدت له أطفال عديدة ، منهم اثنان ورثا العرش : « أمينوفيس الرابع » فرعون المستقبل - وهما « سمنخرع » و « نبخرع » الذى أطلق عليه فيما بعد « توت عنخ آمون » .

وقد اتهمنى والدى بالمرونة فى أداء ما عهد الى . وسعى الى أن يجد لى عملا آخر مؤكدا عدم قدرتى على الخروج من المآزق فى عالم مليء بالمشاكل والمكائد . وأنه كى انجح فى عملى لا بد أن أغير أسلوب عملى . وشرح لى أن سبب شهرته الفائقة هو حزمه فى أداء وظيفته .

كما روى لى كيف استطاع أن يجرد من حوله مما لديهم من سلاح وان يجعلهم يضحكون سخريه من أنفسهم • وجعلهم فى نفس الوقت يضحكون استهزاء بى فقال :

« لكى تعوض الطبيعة ما سلبته من ولى « بوباستوس » جعلته فى صورة قزم عموده الفقرى صلب لا ينحنى على أية حال • وذلك كى لا تطير فقراته اثر تمزق مروع فى عظامى ! » •

وقد حكى لى ذلك فى بهجة يواكبها الحنان قبل أن يسوق الى خبر حصوله على وظيفة كاتب محكمة من أجلى •

ولم تكن هذه نهاية متاعبى • فقند كلفت بأمر لصوص صغار • أسجل الأحكام بعد أن أسألهم • وكان القاضى « بنتو » ينادى بهذا الشعار ويدعو الى تطبيقه : « لا تكن قاسيا » • لكن القاضى « ونس » كان هو الذى يمارس العمل فى أغلب الأحيان • وكان المتهم يتأوه حينما يرى شعار « بنتو » كان يقول : الألم ! الألم فى جسدى !

وكانت أحكامنا أقل قسوة من أحكام الآشوريين الذى يخوزقون اللصوص • أما نحن فلم نتجاوز ضربهم بأغصان الشجر على أيديهم وأرجلهم - وكنا نقطع الأنف والأذنين فى حالة نابش القبور • وكنت اسمع هذا السؤال يخرج من بطن الحامل :

- بأى طريقة حصلت على هذا الاناء ؟

فيكون ردها : وجدته فى منزل •

- فأقول اذن أرنى مكانه •

وكنت أسمع كذلك هذه الأسئلة ؟ •

- من أين تأتيك هذه النقود يا بن ال ؟

فيكون الرد : هذه ثمن أكياس الشعير . .

- شعير ! نذل حقير ! ان أهلك واحفادك القادمون وحتى الجيل السابع لن يزرعوا شعيرا يساوى هذه النقود .

كانت هذه سنة الضباع أيها القاضي ! كل الناس كانوا جوعى . وكانت هذه الحالات تنتهى الى أمر سيئ . وكان الكثيرون ينتهى بهم الأمر الى الأعمال الشاقة أو المناجم .

أذكر نافخ البوق « تو » اتهموه بانتشال سلسلة ذهبية وبيعها . قام رجال الشرطة بتعقبه كى يسلم شركاءه فى السرقة أو يعلن عنهم . ورغم ضربات العصي فلم يزد عن تكرار هذه العبارة : لم أر شيئا ، لم أعمل شيئا ! لم يضعف ولم يعترف . ألقوا به فى السجن وصادروا آله . وبعد ذلك استطاعوا ان يعرفوا من قام بارتكاب الجريمة فأطلقوا سراحه وأعادوا اليه البوق .

وأحيانا أخرى كنت أقوم بغض النزاعات وأشترك فى كل الردود . وفى الحديث كان المتنازعون يشورون . ومع ذلك لم تفسد الشتائم النزاعات .

وكنت أقوم بتسجيل هذه النزاعات والشتائم فى المساء . أكتبها فى متعة فائقة وأشكلها على ورقتى البيضاء على هيئة الشعبان المرح . اليك بعض هذه الشتائم :

- ياراس القصعة يا من لا تقتنى غير الأوز

- يا أنف بلا انفاس !

- أذنيك كالفتائر . كبيرتين !

- الشمس يحجبها وجهك !

- لا يناسبك غير الكلا • فانت تستحقينه !

- فمك مغلق كالمعصم !

- كلامك لا قيمة له !

- كيس من الظل !

- من يمكنه أن ينفذ من بين أستار عقلك ! ياغبى !

- لقد مر الذكاء بجوارك !

- لسانك ذو ثلاث شعب !

- قارب بلا ضابط يحكمك !

- عقلك من البذر !

وكنت أقوم بتسجيل هذه التقارير فى سجلات كثيرة •
وتتكوم رزم الورق بجوار الجدران حتى أنى خشيت أن تغطينا تحت
ثقلها •

وكم اتساءل عما اذا كان هناك فى العالم بلد مثل بلدنا يحتفظ
بمثل هذه السجلات والمستندات • وإنى فى الحقيقة لمشفق على
أولئك الذين سيحاولون فك هذه الإطلاس بعد حين •

« وعدتنى يا قلبى أن تتحمل بشجاعة هذا الغياب وأن تظل
صابرا يحدوك الأمل » •

ذات صباح ، جاءنى رسول أمينوفيس حاملا تلك الكلمات
على لوح من الجير وحين قرأتها استقرت على الفور فى انحاء جسدى
ولم أسأل نفسى الا بعد مدة عن ذلك الذى يذكرنى به أمينوفيس •
كما لم أتساءل عن سبب هذه الرسالة المفاجئة •

وفجأة كذلك تخبرني « سيكي » أن الأمير كان قد أرسل إلى عدة رسائل لكن المحيطين كانوا يقومون بنشلها تنفيذا لأوامر بهذا الشأن . فنظرت إليها مندهشة . إذ كيف سمحت لنفسها بأن تكون شريكة في هذا العمل . فبدأت ترتعش والدموع الغزيرة تنهمر على خديها ، وما كان مني إلا أن ضممتها إلى صدري لأهدئ من روعها . وأوضحت لي المربية أنها قبلت ذلك كي يسمحوا لها أن تكون بجوارى :

« كنت بذلك أريد أن أعمل أى شئ كي أظل قريبة منك » .

وكان رسول « أمينوفيس » الذى حمل الرسالة قد أخبرني أنه ليس بمقدوره أن يعود ثانية إلى طيبة وإن من المستحيل أن يأخذ معه أية رسالة إلى الأمير .

كنت أعرف أن زواج الأمير من « تاديبيبا » قد اقترب لذا سألت نفسي : أى انتظار يطلبه الأمير مني ؟

ورغم ذلك كانت الكلمات التى أرسلها إلى فى ذهنى على الدوام . لقد حفظتها عن ظهر قلب فأعطتني الثقة العظيمة فى نتائج لم يكشف عنها النقاب .

ولا أدري أية قوة وأية دقة قلب كانت تقنعني بأن فكرى سوف يصل إليه . فقد أخذت كلماته فى الحسبان ، وأخذت أرددها فى صمت على مسامعه . لهذا سوف أتحمل هذا الغياب يا قلب . ولن أتعجل ولن أمل .

الجزء الثانى

وصلت الملكة « تى » فى موكب محدود دون أن يعلن أحد عن تدومها • وبعد أن اجتازت السقيفة التى أمام الباب وفى الساحة فتحت ذراعيها لاستقبالى أمام بعض رجال البلاط •

وقالت حينئذ : « لقد جئت الى هنا لكى أعيدك الى « طيبة » لأننا سوف نرحل جميعا الى هناك • وقد أعجبتنى جرأتها فى التحلل من الرسميات وتخليها عما اعتادت عليه من المزاكب والتشريفات والمفاجآت •

واختفت « تاديبيينا » !

كنت أقف بجوارها فى العربة حين هروا. بعض الفلاحين نحونا • وكانت الملكة حينئذ تتعجل الرحيل الى « طيبة » ورحل الحصان راكضا • اختفت ؟

وصممت الملكة وبدأت فى وجوم ثم بعد لحظة قالت : انها الآلهة بلا شك !

– وبالطبع لم أكن أعرف شيئاً عن ذلك • وساعتها ، لم تلبث الملكة أن تجعل منى حبيبتهما الوحيدة ! فقالت :

– ان « أمينوفيس » تلزمه زوجة وكم تمنيت أن تكون أنت ، وأخذت يدي فى يديها •

ورغم كل تقديراتها وتفكرها العميق ، كانت قوية الايمان • كانت حماسية متوقدة • وكان الجميع يميلون الى الثقة العمياء فيها •

أدخل قصر « طيبة » وأتقدم مع الملكة تحت الأسقف المزدانة وبين الأعمدة وقد تملكنى الشعور بالعظمة • وكل من بالقصر الملكى ينحنى عند مرورنا أمامه •

وكان ينتابنى الشعور بالاغتراب رغم ذلك • كما أحسست بكراهيتى للمكان • فانا لست ملكة لهذه الأماكن • فلا الأرض ولا الناس الذين قابلتهم هناك يفارقون مخيلتى •

طلب الفتى « أمينوفيس » حضورى • وكنت منذ الليلة الماضية أعاود الظهور فى البلاط • وقام كاتب الأمير باستقبالى • ذلك الأمير الذى كان يرافقه حين كان بعيدا عنى • وقد استقبلنى بنوع من الكآبة • كان هذا يدعى « هاتى » • وكان هذا الكاتب نحيفا مثلى •

وكان « أمينوفيس الثالث » يدنو من أجله • لقد دهمه المرض ولم يدعه يعرف طعم الراحة • فتسلم ولده « أمينوفيس الرابع » البلاط • لتتاح له الفرصة فى ممارسة الحكم • كما أسماه والده « المساعد فى الحكم » أو « مساعد الحاكم » وبعد ذلك أعلن زواجه من « نقرتيتى » •

ولكن ما هو مصير « تاديهييا » ؟

كل كان يفسر بطريقته وحسب هواه علة اختفائها الغامض هناك من قال انها حينما رأت الأمير انتابها الهلع . وان الأمير نفسه رغم أنه كان يتظاهر بالموافقة على تنفيذ رغبة والدته فقد وهبها للأمير « زادى » الأمير الاقطاعى الشاب . ذلك الذى وصل على وجه السرعة من مدينته « تانيب » وحين أعجبت الفتاة وأعجبت به رحلا سويا .

وأكد آخرون أن الفتاة الميثانية القت بنفسها فى الماء بسبب خلقة عريسها الدميمة . ويحكى أن أحد الجنود المراقبين للأمن رآها تفعل ذلك فى احدى الأمسيات وأنه رغم نداءاته المتكررة ، أزاحت الأعشاب وغاصت فى مياه البحيرة تحت ورد الماء والأعشاب

كما دفعت نية البعض الحبيثة الى استئجار الرجال لتفتيش البحيرة ، فقطعوا النباتات من الجذور وأبعدوا نباتات عرائس النيل ومع ذلك لم يعثروا على جثة لها .

كما احتار النمامون والوشاة فى تفسير تصرف ملك « تسوراتا » الذى ظل محتفظا بعلاقاته الوطيدة مع مصر . وقد دلت رسائله على هذا الاخلاص ، اذ كان آخرها يتضمن حديثا موجهها الى « أمينوفيس الثالث » وولده العزيز « الحاكم المساعد » .

وفى اليوم التالى قادنى الوزير « رعمس » الى صالة الاستقبال ، حيث كان الملوك ومستشاروهم . وحينما دخلت على الملك تأثرت كثيرا لتدهور صحته . وكانت زوجته الملكة « تى » بجواره . كانت تجلس على كرسى ذى مضجع مرتفع وله أرجل أربعة فى شكل أرجل الأسد . كانت تبدو أكثر تماسكا ووقارا من أى وقت مضى .

وكان الفرعون فى ملابس واسعة مطرزة تطريزا أسفله مثل قاعدة أثاث منقوشة • كان متهاويا فى الكرسى الذى لا يتعدى ارتفاع ظهره ارتفاع اليد • وكان تحت وقار التاج ولمعان ياقات ثيابه وثنياتها •

وحينما رآنى اعتدلت قامته ثم لم يلبث أن هوى فى الحال خائر القوى فى جسم منتفخ لا لحم فيه ولا عظام •

كان الموت يخيم على الصالة • أشارت الملكة الى كى أدنو منها فاقتربت منها وجلست على مقعد بلا ظهر أو جوانب أمام الملك الذى لاحظت كل شئ يتألم فيه : طرف أنفه المثالية الشكل جبهته المتوازنة ووجهه البيضاوى وكذلك شق عينيه اللوزيتين • كما لاحظت فيه بشرة متراخية فوق أسنان متناقصة ، وأثار قروح كثيرة تغطى كل ملامحه •

كنت مرتبكة •• لا أتكلم • فمند طفولتى كنت أشعر بضعفنا نحن البشر • وحتى لا تباغثنى الصدمة ، كنت أتصور وجوه أحبائى غارقة فى حمام من التجاعيد والانتفاخات والأمراض لكن الحقيقة الأليمة كانت تفاجئنى كل مرة •

وأحيانا كنت أغسل الوجوه التى غزاها الشيب بالمياه فكان أثر الارهاق يتبدد من عليها • وكانت البشرة تستعيد تماسكها وتسترد العين قدرتها على الرؤيا •

ولكن نضارة الشباب وطراوته أجمل كثيرا من صورة الشباب نفسها • لأن جوهر الشباب ذو رائحة قوية نفاذة تنبعث من تحت بشرة مشدودة •

وكنت أنظر الى أمينوفيس الثالث بدهشة • كان الدمار قادما • ورغم ذلك ، كان هناك شئ فيه مازال ينبض بالحياة •

كان عقله متوقدا بفكر براق • وكانت رقبته ترتفع • • وكان هناك ضوء حاد ينبعث من حدقة عينيه • وبعد ذلك لم نعد نرى هذا مرة أخرى • وركد الملك في خمود •

ويأتى الأمير نحونا من آخر الصالة • • أعرف خطواته دون أن التفت ورائى •

وحين هممت بالوقوف والجري نحوه أشارت الملكة الى كى تظل فى مكانى • وبعدها أحسست بيد « أمينوفيس » فوق كتفى • عرفت من حرارته الباردة المحمومة ، رغم قواه المتماسكة وأغلق عينى حتى تكسونى قوته • وبعد قليل يجلس على الوسائد بالقرب منى •

هنا معبد آمون بالكرنك معبد الأسرة الملكية • ويأمر الملك الجديد ببناء معبد للاله الشمس ! شرق المعبد الملكى آمون •

وكانت هذه الآراء تلقى مؤازرة من الشـباب المتحمس لمعتقداته • وقد أعلن موظفون كبار مثل المدير « لوتى » والقائد « موسى » والكاهن الكبير « ميرينيه » ، أعلنوا تأييدهم لهذه التعاليم والآراء • كما سار وراءهم آخرون •

وكان هناك وبلا شك من يترقبون سير الأمور أملا فى انتهازها والاستفادة منها لصالحهم •

كذلك تحمس حاكم طيبة « رعمس » ووزير « أمينوفيس » الثالث « قبل وفاته لآراء الفرعون الشاب • وقد كان لهذا التعاطف من جانب « رعمس » على موقف الملكة « تى » أثر كبير مما جعلها هى الأخرى تتحمس لأفكاره •

وقد خصص معبد « رعمس » الجنائزى والذى حفر فى

الصخور ، خصص للاله آمون • وأقيم على نقوش بارزة تمثل فى شكلها الشاب أمينوفيس •

وقد توجه الشاب الى الوزير بهذه الكلمات التى ردها كثيرا على مسامعه :

« كلمات الشمس أمامك • ليست غريبة عن قلبى • لقد عرفت الاله الوحيد الذى تجلى أمام وجهى • لقد فهمت » •

وتسربت الى الشعب هذه الأفكار ، ذلك الشعب الذى كان يتأهب للوثوب والثورة فى كل مكان • وكان الملك الشاب يتنزه جهارا وفى يده شعاره المتمثل فى قرص الشمس •

وبدا هذا الشعار يظهر رويدا رويدا على جدران المدينة دون أن يعود الشعب الى آلهته الصغيرة المعتاد • وقد تجلت هذه العلامة واضحة جلية لمفهوم العقل •

بدأ أمينوفيس يعترض على كبير الكهنة وبعض رجال القصر • ولم يجرؤ هؤلاء على مواجهته لأنه — كما تصوروا — يستمد سلطته من الآلهة • ولأنه كان محبوبا من أغلب الشعب ، فقد كانوا يؤيدونه • لهذا كان مستعدا أن يقاطع الكهنة ورجال القصر •

وقد حاول والدى « أمينو » الذى ورثت الحماس عنه تجاه المواقف ، حاول ان يشينى عن هذا الطريق مؤكدا على أن الأفكار العظيمة يمكن ان تشتت أذهان أولئك الذين يؤمنون بها ، أن القلب الكريم قد يكون مملوءا بالسراب أحيانا • وهو يرى أن أمينوفيس الشاب حاكم لا يعرف طبيعة الأشياء والناس ، وأن ••

فرددت عليه قائلا ، اننا لن نخرج من الظل أبدا اذا لم نتجه

الى الضوء حتى ولو كان خافتا . ان طبيعة الأمور المستقبلية تقوم على تصورات الحاضر ، وان الناس لا يخلدون الا اذا خاطروا من أجل المستقبل . وانتهى الحوار بيننا بلا فائدة . ولم يتقدم أحد خطوة تجاه الآخر !

ولست أقوم بمقاطعة مجمع الأرباب لأجل خاطر الاله المضییء آتون ، من أجل هذه الشمس التي أنا أحد أبنائها مثلما تكون الملوك ومثل بقية الناس . حتى البؤساء منهم .

سوف أدير ظهري استخفايا بالاله الكلبى والقردى وبالاله أبیس وكذلك الاله الذى له رأس القط . سوف لا أنظر الى التماسيح المبجلة ولا الى الأسماك فى المياه الحلوة أو ثعابين الكوبرا . وسوف أبتعد عن اثنين وأربعين شيطانا مرعبة وعن العفاريت الأربعة . وكذلك عن الاله المتمثل فى العقاب وسأبتعد كذلك عن الجعران . وسوف أترك بلا دمعنة ندم تلك اللبوة الاله التى تتهاذى فى انهار من الدماء ، وكذا سأترك ابن آوى الذى يجوب الصحراوات . سوف أبتعد عن كل هذه الآلهة التى تبجده العقل مثل « باستيه » ، « توت » ، « خونسون » حتى عن هاتور ! وسوف أسير بعيدا عن كل هؤلاء أيضا « سيبك » و « خنوم » و « سيكاميه » و « أبیس » و « بتساح » و « حورس » وعن اله الفجر « خبرى » واله الظهر « رع » وعن اله الغروب « آتون » الذى سوف ينجب « شو » و « تفيبس » اللذان سيلدان « جب » و « نوت » .

سوف أترك الجميع بدون قلق على ذلك من أجل « آتون » العادى تماما . سوف أترك كل تلك الآلهة .

اله واحد يلازمنى دائما ، هو الاله « بس » فهو الذى يدافع

عنى ويجمينى من النظرة الحاسدة • أمسكه دائما فى راحة يدي
ولا أنشغل الا بتأمله خاصة رأسه التى يزينها الريش ولسانه
البارد المستدير • وكل هذا يجعلنى فى راحة بال ذا مزاج معتدل!
لذا سوف أحتفظ به وقد قررت ذلك وعزمت على تنفيذ قرارى !

أغرق موت أمنيوفيس الثالث كل البلاط فى الأحزان •
وتزوج الأمير نفرتيتى بغير رسميات أو أبهة • ثم تلى ذلك تنصيبها
فى هدوء •

وجهزت مقبرة المرحوم الفرعون • تلك المقبرة هى
« دار خلوده » وتم تحنيطه حسب القواعد والأصول • وقام الكهنة
بلف كل عضو من جسده بكل العناية الفائقة كما ربطوا جسده
بقماش من التيل الخفيف الدقيق بعد أن غطوا هذا القماش بطبقة
من الصمغ •

وخلال الأيام الأولى لوفاة الفرعون ، اضطلعت الملكة « تى »
بإدارة بعض الأمور العامة • فكان يتجه اليها القادمون الى القصر
يساعدها فى ذلك مستشاروها • وكانت تعتمد بعض المكاتبات ؛
وفى بعض الأحيان كانت تستبدل اسم الاله « آمون » باسم الاله
« آتون » •

لقد عاد الملك الكبير الى الحياة الأخرى • ماذا حمل معه ؟
هل حمل معه كل هذه الثروات والمؤن ليملاً معدته ؟ وهل ستؤمن
هذه الثروات وجوده فى ذلك العالم الآخر ؟

ومنذ أن يجتاز الانسان عتبة العالم الآخر ، هل ياترى تسجل
الحسنات والسيئات ؟

أنا لا أشى بالآلهة ولا أفترى عليها ، كما لم أخطئ فى حق

الناس • أيتها الآلهة ذات الخطى الواسعة ، يا ملتهمة الظلال ،
يا كاسرة العظام ، يا آكلة الدم ، لاتقفوا ضدى ! » •

كان يوصى بأن يقال ذلك للملك !

» كنت الوحيدة التى طافت مع الملك الشاب فى معبد
الكرنك • ذلك المعبد الذى كان قد أمر ببنائه أثناء ابعادى •

وفى كل المعابد الأخرى ، كانت الأماكن تظلم حين يمر
الانسان بالصالة المقامة على أعمدة وحين يمر من قداس الى قداس
الى مكان الموقد الكبير • أما هنا فأمواج الضوء تفرق المعبد
المقدس •

انظر • سترى الشمس حرة

وهناك تغلف الظلمة ضوء النهار ويكون الشعاع باهتا •
هذا النوع من الضياء ينتشر فى أرجاء الهضاب المخضرة قبل ان
يصل الى المخلصين •

أما هنا فينتشر الضياء دفعة واحدة •

أخذ البعض فى الآونة الأخيرة يشجع أمينوفيس ، وأخذ
البعض الآخر يثنيه عن تنفيذ اصلاحه الدينى • فكان فى صراع
داخلى مع نزعاته النفسية • ولكنه يعتقد انه كلما عانى من الحيرة
أمام المشااكل الكثيرة ، ازدادت حياته الأخرى عظمة • وهو
يعرف الآن أين يتجه ويتمنى أن أبارك أفكاره وآراءه •

ولم يشعر أبدا أو يجعلنى أشعر ان أنوثتى سبب لعدم
مقدرتى على النظر الى الأمور نظرة ثاقبة تتجاوز الحاضر الى
المستقبل كما تتجاوز العزيمة التى تهزم نوائب المستقبل •

كنا . مختلفين الى . أقصى الحدود . وكنا نسعى الى أن نظل
كذلك . لكنه كان يشق بى الى درجة كبيرة لدرجة أنه كان يعتقد أنه
فى قدرتى أن أخترع الجديد وأكتشف المجهول . وكانت ثقته
هذه فى قدراتى تضاعف من امكاناته وقدراته .

وقد أفصح لى أنه يتمنى ان يترك اسم امينوفيس وأن
يسمى نفسه اختاتون أى « الذى يؤمن بالاله آتون » .

وعرض على مشروعه الخاص باقامة عاصمة جديدة بمساعدة
من يشتركون معه فى تحقيق الأمل الجديد . وكان يعتقد أن أرضا
هادئة يمكن ان تحررنا من تراكمات القرون والمعجزات والظلال .
كما يمكن ان تسهل له مهمته الجديدة .

وكان قد استشار بهذا الصدد المهندسين وكذلك صديقه
المخلص النحات « بك » . ولأن هذه المدينة سوف تولد تحت شعار
الشمس المتحررة من القيود ، اقترحت أن يكون اسمها « مدينة
الأفق » وقد قرب هذا الاختيار من وجهتى نظرنا وتوافقنا .

وتهب رياح الحرية على طيبة . ويتخذ الاستعداد اللازم من
أجل الرحيل فى وضوح النهار . أعدوا القارب الملكى فى النهر
وجهزوا الأشرعة . كما تأهب المجدفون والبحارة والقائد للمهمة .

أعلن الملك أنه سيركب النهر فى اتجاه عرض الدلتا نحو
مصب النهر فى البحر ، أملا فى العثور على مكان مناسب ليشيد
مدينة الأفق بين طيبة وممفيس .

وتحدث عن ذلك جهارا الى الشعب الذى أعرب معظمه عن
الرغبة فى اللحاق به ليشترك معه فى البحث . فقال لهم ان
يصبروا بعض الوقت .

رحل اخناتون فى صحبة الملكة ومعه بعض المخلصين .
وحين اكتشف المكان الملائم . قام بارسال مندوبين الى العاصمة
القديمة ليخبر الناس أن جهدهم ضرورى الآن لبناء مدينة
المستقبل .

واجتمع كبار الكهنة فى أماكن خفية . اجتمعوا مع المعارضة
وأوحوا الى المعارضين من الشعب بإثارة المتاعب ، بل وأطلقوا
بينهم شائعة تقول ان الملك أصابه مس من الجنون مما سيكون
له أثره المشئوم فى المستقبل على الجميع .

بل وأخذ الكاهن الأكبر يلوم نفسه على تهاونه الذى سمع
للأحداث أن تبلغ هذا الحد . وقال فى هذا :

« ولكن من كان يتصور فى البداية ان الملكة « تى » سوف
تتحول الى عبادة الاله « آتون » . تلك العبادة التى تزدهر أحيانا
وتخبو أحيانا أخرى ؟ أليس فى تحولها هذا الى هذه العبادة دليل
على تقلب النساء وعدم ثباتهن على حال ؟ ومن كان يتنبأ أن
شطحات الأمير الشاب كانت شيئا غير نزوة المراهق ؟

استولى العزم على اخناتون النحيل لدرجة جعلت أصحاب
الفكر المعارض يعجزون عن مجابهة أفكاره جهارا ! ، فتظاهروا
بالخضوع لاسم « اخناتون » كدليل على استمرار الإصلاح .

وكان ذلك ضروريا بالنسبة لهم فى أيام التيه والاختلاط
فى الأمور . فقبلوا لقاء الناس فجأة ومخالطتهم دون حواجز .
وأصبح الذين كانوا يؤكدون للعامة أن الطبيعة تأمر بالخضوع
التام لسلطاتهم والذى لا تستجيب الا اليه ، أصبحوا مضطرين
– وهم أصحاب المقام الرفيع – الى قبول مشاركة الشعب فى أمور
البلاط .

وكانوا يهمسون بالشكوى من أن هذا الأخناتون قد خلط
الأمور : الحب والدين ، المصرى والأجنبى . كما أن رغبته فى إقامة
مدينة أخرى فى مكان آخر لتكون عاصمة جديدة اهانة «لطيبة» .

أى مدينة تجرؤ على القيام أمام طيبة التى لا يحل محلها
شئ ؟ وقد صارت هذه مركزا للعالم بعد أن كانت ممفيس فى
هذه المكانة منذ أكثر من قرنين من الزمان .

طيبة ذلك المكان العظيم الممتاز ، مركز الامبراطورية
العظمى التى تمتد من مياه نهر الفرات حتى بلاد النوبة ، سوف
تبقى مقرا للفنون والآلهة والفكر .

وأين كان الملك الشاب يختفى ليعمل على النيل من مكانة
طيبة وقوتها وتماسكها ؟ ان هذا الرحيل من شأنه أن يقلل من
شهرة العاصمة ، لأن وجود الفرعون فى مكان يضيف على هذا المكان
صفة القدسية .

وبعد العديد من الأيام خرج الملك وأسرته الى الشاطئ للسفر
وأمكننى ان أحصى بعدهم « آييه » المسئول عن التغذية و « ميرينيه »
كبير الكهنة والنحات « بك » والبنائين المهرة . وكذلك خبراء التربة
ومتأملى النجوم ورجال الفلك .

وعرفت من بينهم رعمس والمدير « لوتى » وكذلك القائد
« حور محب » والمدير « توتو » معلمى وأستاذى كما رأيت « سيكى »
مربية الملكة والوزير العجوز السمين « نخت » ذلك الرجل المذهب
اللطيف الذى لم يكن يرد سائلا دون أن يطيل الاستماع الى
شكواه .

حتى ولو لم يستطع أن يؤدى له شيئا .

كنت أحيى « ماهو » رجل الشرطة الذى كان ينام عند تكليفه بالحراسة . لم يكن يترك أبدا الأوزة « سمون » لأنها كانت عدوانية متيقظة ساهرة . كانت تخبر سيدها بأقل انتهاك للأمن بأن تطلق صيحات أجشة كما تنقره حتى يستيقظ .

وقد سبقنى الى مؤخرة السفينة الحلاق « زوبر » وكنت قد تمكنت من الحصول له على اذن بالإبحار معنا بفضل الصديق « توتو » . وركب بعده ثلاثة من الموسيقيين أيضا وبعدهم ركب أربعة من الكتبة وكانوا كلهم تلاميذ « أمينو » .

ودعنى والدى على الرصيف هامسا فى اذنى . قال انه أحيانا يسأل نفسه عما اذا كان لهذا الحمق سبب مقبول . وأضاف فى تأثر أن تقدم السن أثر فى عينيه فلم يعد يرى جيدا .

لقد تحدثت عن « ناخت » السمين وعن « ماهو » وأوزته . وعن « زوبر » الحلاق وعن الكتبة الأربعة . وكنت أنا « بوباستوس » خامس هؤلاء الأربعة ، خادمك المتواضع .

« تجمع الشعب على رصيف النهر من أجل الوداع . كانوا قد أعدوا لوحا مسطحا للملكة خاصا بها لتمر عليه الملكة « تى » وكبار الشخصيات .

وكانت الملكة « تى » قد وعدت بأن تلحق بنا بمجرد أن نبدأ فى تشييد المدينة ، وربما كان السبب فى تغير موقفها فجأة هو عاداتها فى ذلك . فهل يا ترى تنجر معنا هذه المرة فى اللحظة الأخيرة ؟

لا ، ظلت واقفة لا تتحرك . وقفت كالتمثال الواقف فى شموخ كأحد معالم مدينة « طيبة » وهى فى هذا لا تختلف عن التمثال فى كثير .

كانت شفتيها ترتعشان وقد أغمضت عينيها فجأة لتخفي
ما ألم بها من حزن عميق .

ورغم سعادة أخناتون الغامرة وهو يتجه الى المدينة الجديدة
كان يستشعر الوحدة وظل ينظر طويلا تجاه والدته .

وكلما كان البحار ينتعد عن المدينة « طيبة » كانت تبدو
في عينيه أكبر مكانة وأعظم شأنا .

ها نحن نبحر ببطء شديد ويبدو أن الهواء قد تحالف مع
كل شيء من شأنه أن يوقف مسيرتنا . . ويأمر القائد بالتجديف
بجد واجتهاد . وبدأ ايقاع الأغاني يتوافق مع ارتطام أمواج
النهر . وأتقدم بمفردي نحو مقدم السفينة المنحني الى الأمام .

لا يمكن أن نقارن شيئا بحركة المياه . ولا يمكن أن يبدأ
شيء أساسه - إخلاص الأرض بمثل هذا الغموض لكي يزداد هذا
الشيء اتساعا . باتساع البحار . كما انه لا يخضع شيء بالمرّة هكذا
مثلا خضع هذا الأمر الى مصادره . كما انه لا ينتهي شيء بهذه
الصورة الى المجهول مثل هذا الذي يحدث .

وعلى شاطئ النيل ذي المنازل الطينية ، كان السكان
يرتعشون وكانت الأشجار كذلك ومثلها الحشائش والحيوانات
كل شيء كان يرتعش في داخل نفسه وفي صدى ذاته .

وتخبرني « طيبة » بعيدا ولكن هل سوف تتخلي طيبة عن
أصولنا ؟ واتجه الى أخناتون الذي جاء بدوره نحوي . جاء يسألني:
هل سنعثر على المدينة الأخرى ؟

ان هذا المكان موجود ، وسوف أتعرف عليه ، ثم أحاطني
بذراعه قائلا « سنجد المكان سويا » .

استيقظنا مع اشراقة الفجر • وكان يحيط بنا أسطول
نهري صغير • ولم يستطع الرجال والنساء والأطفال أن يقاوموا
رغبتهم الملحة في السير وراءنا ، فتجمعوا في قوارب مسطحة
وأخذوا ينادون •

وهنا وقف وزير التغذية « آييه » وفي صحبته « حور محب »
بصوته الحاد النبرات ، وقفنا في مؤخرة القارب الملكي ، وقفنا
يناشدان الناس أن يرجعوا •

ولكن « نخت » السمين صاحب المزاج المنشرح والنفس السريع
كذلك ، وقف على عارضة خشبية يصيح بأعلى صوته قائلاً لهم
مرحباً ، هلموا • وردد وراءه « زوپير » هذه الكلمات ومعه
الموسيقيون •

استيقظ « ماهو » فجأة على صيحات الأوزة ، استيقظ
وهو لا يعرف إلى أين يتجه بقلبه • أيقف بجانب « حور محب »
وسلطته ، أم بجانب ما يحبه ويهواه ؟ وسرعان ما انحاز إلى
قلبه مرددا هتاف الجمهور الذي ينتشر في الأرجاء صدها نشواناً
من هتافات الناس ، كان أخناتون يحث الناس على الاستمرار
في الطريق •

استمرت الرحلة أياماً وليالي نحو الشمال في هدوء • أخذنا
نرقب المشاهد ونترصد لها • وما هي مصر تزام نيلها المتمثل
في مجرى أخضر تحيطه الصحراء المنبسطة والتلال الصفراء •

وترسو السفينة على الشاطئ • أحياناً وينزل أخناتون ونفرتيتي
على الشاطئ يحيط بهما نفر قليل •

هاأنذا أتابعهما • أدون ملاحظاتي وأنا منحني على الجبال •

أتابعهما وأتابع من حولهما • يجوبان حافة النهر ثم يصعدان ثانية
فى القارب لنتابع المسير •

كانت القوارب الصغيرة المكتظة بالناس تفعل مثلنا تم تفرد
أشرعتها من جديد • وقد ظل الجمهور واثقا متريثا ولم يتعجل
الأمر متجمعا عند مكان الإبحار •

وعلى الضفة اليسرى للنيل ، وفى منتصف الطريق بين
طيبة « ممفيس » لاحظت واديا مرتفعا ارتفاعا قليلا على شكل
مسرح واسع وكان فى وسطه صخور جيرية • وهنا مد اخناتون
يده مشيرا بسبابته فى اصرار تجاه نصف الدائرة الكبير • لقد
تعرف على أرضه ، ونزل هذه المرة بمفرده •

أخذ يذهب ويجىء مرارا على الشاطئ ثم غاب داخل السهل
سائرا تجاه الصخور وما لبث أن اختفى بعيدا •

وأخذ البنائون يناقشون مزايا المكان ووجدوا فى ارتفاعه
النسبى حصنا يمنع عن المدينة خطر الفيضان كما وجدوا فيما
يحيطه من صخور حاجزا يدرأ عنها رمال الصحراء التى تجليها
الرياح ، كما وجدوا فى هذه الصخور مانعا ضد أخطار اللصوص
القادمين من الصحراء • كما لاحظوا أن موقع المكان فى اتجاه
الشمال يميزه بطقس معتدل فى الصيف أقل قيظا من صيف
طيبة الملتهب •

وعلى الشاطئ المقابل للمكان ، يقبع الوادى الخصب الذى
جلبه الغرين • فسوف يجد الشعب قوته اليومى من الغداء •

وقد تلهف الجميع الى النزول فى المكان ليلحقوا بالعاقل
الشاب ، لكن نفرتينى كانت تمنعهم لمرات متكررة •

« كنت متلهفة أن أترك القارب الشراعى كى أسير فى

السسهل وأصل الى أخناتون . لكنى أدركت أنه من الأفضل أن
أتركه ونفسه لكى يتفقد المكان بمفرده . وليكون انطباعه عنه .
فألوحدة هنا تلزمه .

وعندما عاد من جولاته الطويلة ، قام يمسح الساحل مرة
أخرى قبل أن يعود ثانيا ويجلس على صخرة رمادية اللون ، لقد
ملأ ظله النحيل هنا المسرح الفسيح المنير ، ملأه بحضور غريب
فريد . وما تركته عيناي لحظة .

« انحنى فترة طويلة الى الامام واستند بكوعيه ووجهه بين
كفيه كما لو كان يسمع الى ضوضاء المدينة الجديدة ، وهى ترتفع
فى أعماق ذاته .

كل شىء هادىء فى القارب . وحتى أسطول القوارب الصغيرة
التي تصاحب القارب الملكى ، لم يصدر عنه أية ضوضاء .

أخيرا نهض أخناتون وأخذ نفسا طويلا . ورغم المسافة
التي تفصلنا فهو قريب منى . وتلك حقيقة يدركها تماما .

وهذه مدينة الأفق بمنشآتها العامة ومعابدها ومنازلها
ومنازل عمالها وصناعها وحدائقها ومقابرها ترتفع فى أعماقه .
وبعد ذلك ترتفع فى الأعماق وداخلى . وبارتفاعها ترتفع سويا .

وضحكات الأطفال التي سوف تمتزج بضحكاتنا ترن فى أذنى
أرى فى المدينة عجوزا متورد الخدين وهو جالس فى أحد الطرق
حيث أشجار الصفصاف تتدلى فروعها . أدفىء يدي مع الآخرين
فوق جمر نار الشتاء الموقدة وسط المدينة . وأدخل حديقة فأرى
سيدة جميلة تقطف الأزهار .

عاد « أخناتون » ساعة الغسق وتوجه أول الأمر الى « بك »

وأصدقائه ليستشيرهم فى أمر المدينة • وقد أبدى النحاتون موافقتهم على المكان قائلين : غدا سننزل من القارب •

أخذ « أخناتون » يدى فى يده واصططحبني على الرصيف وسرنا تجاه أعماق السهل • سوف نقضى أول ليلة وحدنا هناك تحت أضواء النجوم بفترشين أرض المدينة •

سهرنا ونمنا ثم استيقظنا •

جلس أخناتون أمامي مغلقا عينيه بينما تداعب أنامله الطويلة رموشى ووجهى ووجنتى وأنفى وشفتى كما لو كان يريد أن يتأمل ملامحى بطريقة أخرى غير المشاهدة •

وكنت بدورى أستكشف وجهه • ولم ألبث أن أرحت وجهى فى يديه المبسوطين والتقى فمه بفمى • والتقى كل شئ فىنا بكل شئ • وتوازت حركاتنا وقلباتنا وغمرت السعادة جسدنا •

واليوم أيضا تلاشت أشياء كثيرة وابتعدت ، ووقعت أحداث أخرى كثيرة لا يمكن أن تنسى •

وفى تلك اللحظات الحالكة ، بعدما اجتزنا الأزمات ، ظهر ان الاضطراب والضيق غيرا من طبيعة أخناتون ، ولكن عندما حاصره الموت ، كانت هذه درجة أكبر من أية فاجعة أخرى • وهنا لم يستطع شئ أن يغير طبيعته بعد ذلك •

ولم يفارقنى الشعور ، وما زلت أشعر أننا نتعانق متلاصقين حتى أدق أعصابنا ، يطمرنا نفس النسيج الأصيل •

وحتى هذا اليوم يا بوباستوس ، تغمرنى صورة الليلة الأولى التى قضيناها على أرض مدينة الأفق ، ليست كذكرى ولكنها كفيض من اللذة والامل يسرى قطرة قطرة تحت جلدى •

وعلى أساسات المدينة الجديدة ، كانت الأرض تركز الى الليل مطمئنة وكان كلانا يلتقي بالآخر .

يفاجؤنا الفجر بطلعته ويستقبله أخناتون بصيحات فرح وسرور مهللا :

سوف تكونى خالدة الى الأبد ، وسوف نجرى الى ركن قصى حيث حافة النهر المظلمة الرطبة . وحينما يضغط أحدا بنا بقدمه على الأرض الموحلة ويدخل الماء فى نعله يلطخه ، تنطلق ضحكائنا .

ولكى يحدد أخناتون مدينة الأفق قام بتحديد منتصف الدائرة . وأمر بوضع موزج لحطة بناء المدينة على مسلات تحيط بها .

وقد شاهدت بعينى هذه المخطوطات . وكان الفرعون يملئ كلماتها التى شهدت مولدها تحت الجير الأبيض : « هذا هو المكان الذى لا يملكه اله أو أدير . هذا مكان الجميع . هنا سوف تملأ الشمس جميع الكون بالحب .

وكانت السرعة المحمومة فى انجاز الأعمال تؤثر أحيانا فى درجة دقة البناء الذى استغرق أربعة أعوام . ويمكن القول ان أخطارا كانت تتهدد اقامتها . . وان كل حجر كان يوضع فى البناء ، كان يقطع الأمل أمام أية محاولة للنيل منه .

تزايد الناس وتحمست كل مصر لأفكار الفرعون الشاب . وكان العمال يأتون بالآلاف من مناطق قريبة للمساعدة بأدواتهم الخاصة . ومن هؤلاء التاجر « نجودو » الذى أتى وفى صحبته آخرون . والجندي « ربادى » ذو المكانة المرموقة والذى اشتهر بالشهامة . أتى للمساعدة مع مجموعة من فصيلته .

كما نزلت الى الشاطئء كذلك احدى السيدات الطاعنات
فى السن ومعها شعلة من الصلصال ذات مساء . وكان فى رداثها
حجر كبير مربوط على صدرها .

وكان القادمون على ظهر القارب الملكى من « طيبة » يتعلمون
استخدام المعول وكيفية تثبيت القوالب بالمونة . وأذكر ان والدى
« أمينو » قال لى : « تعلم هذه الحكمة التى قالها الوزير « حتب » :
ينبغى أن تتعلم الأيدى التى تحمل البريق والعلم كيف تمسك
الفأس أو المعول . » وذلك رغم أن أصابع والدى لم تمسك شيئا
غير القلم . لهذا بدأت أعمل مع الآخرين فى البناء .

وكنت أنهار من التعب مع قدوم الليل ، فأدهن جسمى بالزيت
والمرهم . وكانت الفائدة من وراء ذلك مؤكدة .

وقد تم البناء بفضل عزيمة الجميع وتفاهمهم . وكانت
الفيضانات تتوالى كل يوم . وكان أختاتون ينتقل من مكان الى
آخر ومن مجموعة الى أخرى دون كلل أو تعب .

وقد ارتبط هذا الحماس بقوى جسمانية ، تفتقر بالتدريج ولم
يشعر طوال هذه السنين الأربعة بأى أعراض للمرض .

وارتبط فيه العقل الحازم المتوقد مع حرارة القلب المتحمس ،
وظهر انه قادر على الانجاز بعد التصور . فكان يقوم بالتخطيط
بمساعدة أصحابه ، وقيم ويختار بحزم عن دراية ومعرفة لدرجة
تدهش المحيطين به . ولم يبدر له أن يغفل أية تفصييلة ولو دقيقة ،
كرصيف المشاة ، وطريق العربات وتهوية المدينة فى الصيف حين
تكون حرارة الشمس والصحراء شديدة من أجل ألا تشعر
المدينة بالاختناق .

كان يريد أن تنقسم المدينة الى أحياء ، كل حى فيها مجموعة

من المنازل المتجاورة تربط بينها شوارع مستقيمة تسهل السير فيها . ووعد بزراعة أشجار على الطرقات من أجل التنزه . واستقدم أشجار تفاح فى آنية . كما استقدم أشجار اللوز ونباتات أخرى من بلاد شتى .

ولأنه كان يحلم هو وزوجته نفرتيتى بمدينة تتنفس فيها الجدران ، أمر أن ترسم الطيور والأسماك والغزلان يشاكس بعضها البعض وسط رسوم نباتات الوادى . كل هذا على جدران المدينة . وكان قد أمر بأن تبنى المنازل والقصور بطوب الغرين المحروق، فيما عدا النوافذ والأعمدة التى كانت من الحجر . وكان يريد ألا يزيد ارتفاع المنازل على طابق واحد . وأن تحيط كل منزل حديقة، وكان يريد أن يعيد بناء معبد غير مسقوف متصل بالسما . كما أمر أن تحفر القبور وسط الصخور .

« تم بناء المدينة خلال أربع سنوات . وقد وفد اليها الكثير من الغرباء للإقامة فيها مما جعلها تشتهر بهذا الاسم « مدينة الأرض » وقد أنجبنا خلال هذه السنين ثلاث بنات هن « ميريه » و « ميكيه » و « أنخيه » .

أمر الفرعون بإقامة المعبد وسط المدينة . ولم يكن لحرم المعبد الرئيسى سقف : ولكى نزيد من وقار هذا المكان المقدس ، لم نجعل هناك ساترا تحجب دخول النور . وكانت أصوات كهنة آمون الجنائزية النغم تجعل النساء خائفين مما جعلنا نستبدل هذه الأنغام بصوت « ميرينيه » العساذى القريب من اعتقاداتنا . وسبوف يصلى كل انسان لكلامه الخاص به .

وقام كبار الكهنة باخفاء آلهتهم فى أوكار ، كما هربوا رجاله فى خبايا الرعب . وصار غموض الحياة هو الغموض الوحيد . وأنصت الى أخناتون اذ يقول :

سر الشمس التى لا تكف عن الظهور ، وسر الدم الذى يجعلنا
أحياء ، وسر الشجرة المخضرة . . . هو الله ! الحياة ! انه يرى علافة
وجسود الله فى كل شيء . فى حفيف الأوراق ، فى عجل صنوبر
يجرى ، فى الكتكوت الذى ينقر داخل البيضة ، فى النسنيم
الذى يملأ الشارع .

تطول الحياة بالخلود ، لكنها تتحرك كذلك فى كل ما هو قابل
للغناء . واذا كان الله موجودا ، فهو الحركة والقوة ، وهو محرك
العواطف . انه الذى يمر ويبقى . وهو فى الحاضر ، فى المستقبل ،
فى الأماكن الأخرى وهو يتجلى فى وجودنا .

ورغم مهام « أخناتون » الضخمة ، فأحيانا يحدثنى ، ويحدثنى
كما لو كان يتحدث من أعماق وادى هادى ، من أعماق السكون ،
من داخل فرجة للضوء ، يسمعنى نشيده الذى يتابع كتابته ، ذلك
الحديث الذى يتوجه به الى آتون . وعلى عكس ذلك كنت أتذكر
نشيدا آخر لتجتمس الثالث . كان ذلك الحديث موجها الى آمون
وكانت « سبيكى » قد تعلمته من البستانى « شيدو »

« دعست الأعداء بالأقدام »

وهم فى الفرع الألم .

أحى فيك هذا المنتقم

الواقف على ظهر ضحيته ! «

وأنصت الى أخناتون . يبدو كأنه يستمع الى كلمات شغبنا
من خلال كلماته هو ، هذا الشعب المتسامح دائما فى أفعاله .

« لقد خلقت كل البسيطة ومن عليها .

كل بلد غريب ههما كان موقعه

تجعله كذلك يحيا

حسنك يقبل العالم ويحنو عليه

بحبك توجد الكائنات والأشياء

والناس جميعهم أحياء بفضل ارادتك «

ويصل صوته الى بعيد . وأسمع صدهاء دائما يوحى بأناشيده
أخرى . ذلك الصوت المفعم بالحياة !

فرغ الجميع من أعمال البناء . وخرجت الى الوجود مدينة
الأفق وبدأت تدب الحياة فيما كان صحراء بالأمس : الحدائق
والمباني والناس الكثيرون . وها هي المدينة التي انبعثت من حلمنا ،
من ألمنا وعرقنا !

وتتجلى سعادتي ، وأركع لأقبل الأرض . ولو استطعت أن
أعانق السماء لفعلت لكنها تمنع وتبتعد ! نعم انى أصبح على
راحتى فوق سطح المدينة . مدينتى !

انتصبت المدينة بين جدران زاهية الألوان وسط أشجار
وشرائط تزين الميادين كالرايات .

أهرب من « سيكى » ومن مفاتن صدرها فأصل الى « مجمع
الخطايا وحقيبة الأخطاء » - انى أسمعك من هنا يا والدى « أمينو » -
وتستقبلنى « نوبا » عاملة المجداف بثوب جميل نقضى ساعة . كل
يحتضن الآخر . وبعدها أقدم لها هدية صغيرة .

وحينما تلح وتطالب بالمزيد ، أهرب فى الاتجاه الآخر ،
وأشغل نفسى بطعام قامت « سيكى » باعداده . أقول لها انك
مثل أمى ! . وتحت كل ثدى أم تنام مرضعة . وأتذوق بمتعة
لحم سمانة أو سمكة . أكل البصل والثوم .

وبينما يسيء الكل معاملتى • يقولون : لحم جميل يناسبه
ضرب السيف ! بطيخ كبير البطن منغمس فى اللذات ! •
وتنظر سىكى الى فى دهشة !

أرسل الناس مندوبين عنهم من أواسط البحر ومن البلاد
المجاورة الى مدينة الأرض من أجل اعلان الولاء للفرعون • وأحيانا
تقرى طوابير السجناء راكعين أمام أقدام الملك وأيادهم موثوقة
الى الظهر ، وبعيدا عن الحسة فى العمل والمعاملة ، كان أخناتون
يطلق سراحهم • لهذا وجد كثير من الثائرين السسكن والسكىنة
فى المدينة التى لا أسر فيها ولا تعذيب •

ومن الناحية الأخرى ، كان هناك أمراء متسلطون لا يرتضون
أن يخالط رجال الدولة ذوى الأصل المتواضع من الناس حتى ان
« أبديب » قال لى :

« أنا الذى كان لا يجد الخبز يجد نفسه الآن مستشارا »
وكان هذا لا يروق لهؤلاء •

رحل المتطلعون الى التسلط من مدينة الأفق الى طيبة من جديد
ولم يستطع هؤلاء التسامح حيال سلوك الأمراء الشبان ولا تجاه
الذين يتيح لهم أصلهم الرفيع الحصول على مكاسب وبالرغم من
ذلك يتخيلون عنها تقربا الى الشعب ، ورضوا بالقليل وبالتعايش
مع الناس •

وبدت لهم السلطة بكل مميزاتها كسبا غاليا ، لذا رأوا أن
يلقوا بأنفسهم فى النار دفاعا عنه • وأداروا ظهرهم الى مدينة
الأفق ورحلوا الى العاصمة القديمة تغمرهم هذه المفاهيم •

وغالبا ما اختلط بالعامية وأشجع المضارعين والملاكمين ورماة

السهم • كما أتابع المهرجين من الممثلين والذين تبدو تدريباتهم
أمرا عاديا بالنسبة لى •

ذات يوم وبينما كنت أقفز مع ايقاع ضربات الطبله نشوانا
من صياح الجمهور ، قفز « سبت » حول رقبتى مرة واحدة ! وكان
ذلك اعجابا منه واعلانا منه بالرغبة فى صحبتى دون افتراق •
وأخذ يحك خده الملىء بالشعر فى خدى كما التف حول رقبتى
فى عناق •

وما كان ينبغى أن ينتهى ما بيننا من مودة حتى كان ذلك
اليوم المشئوم الذى اختفى فيه بين الأطلال وخرائب المدينة • كان
يسير على الدوام فى أثرى حتى أن ظلنا كان ظلا واحدا •

وعندما كانت تكسل ذاكرتى عقب الافراط فى الخمر أو على
أثر نوبة حزن ، كنت أزاول التمرين على تمثيلية هزلية ، وكان
« ستب » يشجعنى بالتصفيق حتى أستعيد توازنى •

وكانت الأميرات الصغيرات تحبين ثعبانى ، وعندما كان
هتاف الناس يصل الى مسامع الفرعون وزوجته والى مسامع
بناتهما أيضا وهم فى شرفة القصر ، كنت و « ستيب » نختفى
وراء الجماهير • وهنا كانت « ميره » و « ميكه » تجذباننا الى
الصف الأول •

« وحتى أمام العامة من الناس ، يلعب أخناتون مع بناته ،
فيجعل « ميره » تقفز على كتفه ، ويربط « ميكه » فى غزال
يغدو ببطء حوالينا ، ويمسك بالصغيرة « أنخيه » فى ذراعيه
ويقبلها دون ملل • ولا شك أنه آسف لعدم انجابى أولادا ذكورا •
ولكنه لم يفكر حتى فى مجرد الشكوى من ذلك أو أن يعتب على
وأن يبحث عن زوجات أخريات •

وكان بين العامة أيضا يحيط خصرى بذراعيه ، ويضمنى
اليه . وكان أحيانا يجوب العاصمة بمفرده فى عربته الخاصة
ومرات أخرى يقوم باصطحابنا . وكانت بناتنا العاريات تستندن
على حافة العربى لتحية المارة وهو ينظر إلينا . وتلتقى شفانا .
وكان البعض يعتب علينا ذلك بدعوى اننا نسيىء الى صورة
الفرعون الالهية . ولكننا كنا نريد هدم الأسوار والحواجز والغاء
المسافات !

وكان أخناتون يؤكد أمام « بك » وأمام آخرين من رجال
الفن على ضرورة القيام برسم صورنا كما نحن على حالتنا الطبيعية
ونحن نأكل ، ونشرب ، ونتلاطف . ونحن نتنزه ونتعاطف . . .
كما هو بوجهه الطويل وفخذه العريضتين . ولم يكن يخفى
مساوى خلقته . وكان يظهر فى جيب قصيرة من التيسل ونصفه
الأعلى بلا ملابس يرتديه .

ولم تكن نرفض المتع التى كان وراءها القلب : تلك الأيادى
تبحث عن بعضها ، وتلتقى متشابكة . فهذا ذراع تستند على
كتف ، ونفس حار قرب الرقبسة ، وقبلات من الواحد للآخر على
الحدود والكوع والمعصم وعلى ركبتى الطفل . . .

ولم نحرم أنفسنا من كلمة حب تقال ، فكلمات الحب تهدى
المشاعر وتقوى الأعصاب - أنت التى أحب - ولن أتزوج الا أنت
يا نفرتيتى .

وعلى غير ما كان يفعل أجداد أخناتون ، كان لا يجب أن يكون
له بلاط من الحريم ، وعلى وجه العموم ، كانت الحريم فى بلاط
أدنى درجة من الملكة بكل المقاييس والأسس ، وكان يجعل من
زوجته « نفرتيتى » انسانة مساوية له فى المكانة .

ولا تتضمن كتاباتنا عن النساء واليهما كلمات رقيقة . أما المتقدمات فى السن اللاتى فقدن صفاتهن الأنثوية ، فكانت وحدهن تجدن اللطف والرقه فى أقلام كتاب الأخبار .

أما الحسنات فكان يقال لهن : خفيات ، صاحبات نزوة وكثيرات الكلام ، مفشيات للأسرار وغادرات الطبع ! » .

وعن الرجال نقول انهم مخلصون ، ودودون ، شجعان عقلاء وعظام . كم هم عظام ! وكانت لدى النزعة الى تعظيم الرجال لولا خلافى مع « توتو » الذى أثار غضبى الأخرس ضدهم . وان كان هذا الموقف لم يسبق أن تناوله أحد بالكتابة المستفيضة . لقد فاجأت المدير « توتو » بأنه ليس من الوقار أن تكون عاملة المجداف بين ذراعى « نوبا » ذلك الذى سمعته أيضا وهو يسخر من أخناتون مسفها تصرفاته وسلوكه .

اننا نحن الرجال نملك ميراثا من الحقوق التى ينبغى أن نفكر فيها جيدا وألا نتخلى فجأة عنها ورغم ذلك لم أستغل هذه الحقوق استغلالا سيئا أو حتى أحدها . كما لم أعتقد فى أفضلية جنس الرجال على النساء واستغلالهم لهذه الأفضلية :

« ويمكن لرجل أن يستقدم خليات فى بيته . ومن حق الرجل الذى يرتقى فى وظيفته أن يطلق زوجته الرقيقة الحال كي تحل محلها من تتلاءم مع حالته الجديدة . وللرجل الحق فى أن يضرب زوجته دون أن يفرط فى ذلك ولو ارتكبت هذه حالة الزنا له أن يعاقبها بالموت . ولو فعل الرجل كما فعلت زوجته لا يكون معرضا لأية عقوبة . وتعتبر المرأة عجوزا اذا بلغت سن الثلاثين . والرجل صالح فى جميع الأعمار » .

وليس من طبيعة عملى أنا - بوياستوس - أن أنقب تحت الجدران ، والا فلتأتى المرأة لكى تكتب وتكون السبب فى اهتزاز البناء ووجود الخلل فيه . امرأة تكتب ! انها لفكرة مضحكة !

ومع ذلك يبدو أختاتون مصمما على أن يعطى صورة أخرى
للزوج والزوجة . وأعترف أنني أحيانا ما أهتز من أعماقي لذلك .

وتقلق هذه التصرفات من جانب الفرعون الأمير « نوتو »
وآخرين غيره . ألم يأمر هذا بأن تنقش كلمات مدح لزوجته على
أول مسلة فى مدينة الأفق ؟

« أيمكن أن توافق روحى على أن الحبيبة نفرتيتى شاخت
بعد العديد من السنين ؟ لسوف تظل الى الأبد : انها الجميلة
القادمة » .

وخل بحذاء الشاطئ من طيبة قارب الملكة « تى » كان يسير
ذلك القارب المهيّب بجوار الأرصفة البيضاء اللامعة الى أن ألقى
مرساة أمام مدينة الأفق .

تمر الآن ثمانية أعوام منها أربعة بعد بناء المدينة . ورغم
أن ولدها أختاتون لم يكف عن دعوتها الى الحضور اليها عن
طريق رسله . ورغم انه أقام لها قصرا ومعبدا فى العاصمة
الجديدة الا أنها كانت ترجى الوصول . وهل تبقى هذه المرة
هنا على الدوام عند قدومها ؟

كان الفرعون وحاشيته فى استقبال الملكة أمام الشاطئ .
وقف الفرعون ومعه زوجته فى انتظارها ، وكان يرتدى وزرة من
التيل . أما زوجته فكانت ترتدى ثوبا خفيفا يداعبه الهواء وحولهما
البنات الصغيرات « ميري » و « ميكيه » و « أنخيه » .

وكنت قد ضفرت شريطين من الزهور ، أحدهما من أجلى
والآخر من أجل « سنب » ، ولكن الثعبان رقص أن يلبس شريطه ،
واضطرت إن ألبس الاثنين معا ، فكنت فى النهاية غريب المظهر

مما جعل « سنب » يظهر استياءه لذلك • وبدأ يعض ياقتي ويعفر حتى أخلع الشريطين • وأخيرا أمسك بهما وقام بتوزيع زهورهما على الأميرات السعيدات •

وكان الجمهور يقف محموما في انتظار الملكة بطول الشاطئ وخصوصا على الرصيف الذي أعد لهذه المناسبة • ولم تكن الملكة « تي » قد ظهرت من داخل القارب حين كان الوزير الضخم « نخت » يلهث ذهابا وعودة من أجل الاطمئنان على آخر الاستعدادات لاستقبال الملكة •

وكان كبير الكهنة « ميرنيه » يتحدث مع مندوب الأقاليم « بخورو » كما كانت « سيكي » تجفف دمعها بجوار المدير «لوتى » بينما كان المدير الآخر « توتو » مشغولا فى اعداد الوليمة بعد أن ظل طوال الليل فى أحضان « نوبا » •

وكان القائد « ربادى » يدرّب مجموعته على الأعمال المدنية من أجل المساهمة فى تعمير المدينة • ولم يكن القائد الشاب « حور محب » غير موجود فى الاستقبال لأنه كان كثير التنقل على حدود المدينة مشرفا على الحامية • وكنت كثيرا ما أسأل نفسى عنه وعن جماعته •

كما تقدم الوزير العجوز « رعمس » وهو يتكىء على ذراع النجّات « بك » وكان حوله تلاميذه وعماله • وكذلك فعل « آييه » القائم على أمور التغذية فتقدم لانتظار الملكة على الرصيف •

أما « ماهو » فلم يكن ذات يوم فى حاجة الى أن يستحثه « سمون » • فقد وقف جاحظ العينين أسفل الرصيف • وكانت أوزته الحبيسة داخل فناء منزله تصيح صيحات عالية أزعجت الحى كله واستمر الجميع واقفين فى انتظار الملكة « تي » •

وأخيرا ظهرت الملكة « تى » يحيطها رجال البلاط ذوو الملابس
المزركشة . وكان وجهها رقيق ورأسها يحتمل بلا عناء شعرها
المستعار ، وتاج من الذهب تزينه فصوص لامعة يحلى رأسها .
وظل ثوبها متماسكا ، مشدودا مثل شراع شده الريح .

وقد سبقها المبشرون بقدميها وأحاط بها كبار الخدم وحاملو
المراوح والمظلات والرايات المصنوعة من الريش . كما تبعها طفلان
فى الثامنة من عمرهما هما « سمنخرع » و « نبخرع » . وهما
ولدان لأحدى الخليلات اللاتي كانت « الزوجة الكبرى » قد
اختارتهم للملك « امينوفيس الثالث » قبل ان يموت بأيام قليلة
ثم قامت بتربيتهم فى البلاط . وكانت تلك هى المرة الأولى التى
يقابلان فيها أخاهما من الأب « أخناتون » .

وقد أدهش مظهرها الرائع جميع الناس . وكان الصمت
جليلا ، مهابا حيث انحنت الظهور وركع الناس كما سجد البعض
أمامها .

لكن « أخناتون » وزوجته تجاهلا فجأة كل مظاهر الاستقبال
الرسمية وتقدما هرولة وسط بناتهما فاتحن الأذرع العارية حتى
مفصل الكوع .

أرض كريمة خرجت بيضاء وخضراء من الصحراء فأدهشت
زوارها . لقد تأملتها الملكة « تى » قبل أن تهبط الرصيف ثم
قالت : انها كشعاع من السماء !

وبعد ذلك تقدمت وسارت بجوار ولدها أخناتون . سارا فى
دروب المدينة المزدانة بشرائط ملونة وأنغام القيثارة وأحجار
البناء . اصطحبها وسط المباني ذات المناور وبين آبار المياه المتعددة
وأحواض زهرة اللوتس والأنهار الجارية بالأسماك . ثم توقف

بها عند أحد الجداول ودعاها الى الراحة بأحد الاكشاك التى زودها
بآنية الخمر مع الطازج من الفواكه .

وبعد ذلك قامت بزيارة المراسم وورش النحت . وكان
« جوهوتى » يشرع ساعتها فى الانتهاء من تمثال لنصفها العلوى
صنعة من الحجر الجيرى .

وأخيرا توجه الجميع الى المائدة .

شعر « سنب » حينذ بدنو اللحظة الممتعة من النهار ،
فبدأ يقفز مسرورا وأخذ يلحس يدى . ففعلت كما فعل . ولحقت
بنا « سىكى » وهى تحمل الطفلة « أنخيه » على كتفها وأخذت
مكانها على المائدة . وقمت أنا بالجلوس أيضا . كنا فعل الآخرون
لتناول الطعام .

كان الحكيم « حتب » يقول : « كن سخيا » عندما تقيم وليمة
ولا تضع فى الحسبان أن يعود شىء الى مخزن الطعام مما كان
قد خرج .

كان الطعام كثيرا والشراب أيضا . الزهور تزين المائدة .
كان عليها تفاح أحمر لامع وأفخاذ من لحوم البقر غير اللحوم
الأخرى مع قطع الخبز والحلوى وتلال الخضر والفواكه .

ولم يكن ترتيب المائدة غير المنظم يروق للملكة « تى » . فقد
كان الطعام موضوعا بلا اكتراث أو تكلف ، وكيف يروق لها
وهى التى اعتادت على رسميات مدينة « طيبة » تناولت الطعام
وتناوله معها كبار رجال الدولة ومندوبو الشعب .

وكانت « هويا » كبيرة ياوران الملكة الأم « تى » تباشر

المطابخ • كانت تدور حول الخدم وتدور كي تدرك الأخطاء الكثيرة
فى مأدبة حفل الاستقبال •

أخذت الملكة تراقب طريقة المدعوين والضيوف فى تناول
الطعام ثم ما لبثت ان فعلت مثلما يفعلون كالغريب الذى قدم على
قوم وأخذ يأكل كما يأكلون • وهاهى تقلب الملكة نفرتيتى وهى
تمسك « بطة » محمرة لتأكل منها • ثم أخذت سمانة وأخذت
منها ملىء فمها • أما أخناتون فقد قطع بفمه آخر قطعة من اللحم • بينما
كانت الطفلة « ميكيه » تنتقل على أرجل الجالسين ثم شرب الجميع
الخمر بعد ذلك •

ولم يجد أى من « سمنخرع » و « نبخرع » صعوبة فى
الاشتراك فى المأدبة ولا الفتاتين الأميرتين كذلك • وكانت « هويا »
تهز رأسها •

وأثناء تناول الطعام ، كانت الفرقة الموسيقية تعزف نغما هادئا •
وكان « جوى » مأخوذا بهذا المشهد ، فأخذ يرسم « اسكتشا »
لما يدور أمامه بينما كان جالسا فى أحد زوايا الحجرة • وكان
يقوم بالرسم على ألواح خزفية •

« وفى اليوم التالى ، اصطحب أخناتون والدته الملكة « تى »
الى المعبد • وكان قد أشرف بنفسه على سير الأعمال فيه ، مدققا
فى كل صغيرة تتعلق بالمقبرة الملكية • وكان يكتم سر هذه المقبرة
ليكون الأمر مفاجأة يسعد بها والدته •

وكان كذلك قد أمر بإقامة تمثال لكل من الملكة الوالدة « تى »
وزوجها امينوفيس الثالث وأمر بأن يوضع بين أعمدة المعبد
الخارجية •

وأمام المعبد ، توقفت الملكة وولدها اخناتون وفي صحبة
« آنيه » مشرف التموين الذى كان يتطلع الى لقاء الملكة وبعض
رجال الحاشية • ثم دخل الجميع المعبد • وكنت كذلك معهم •

وكان على المدير « توتو » أن يمنع الناس من تجاوز السور
أما « هويا » فكان قلقا متفعلا خشية الا تروق « مدينة الأفق »
لمزاج الملكة فتقرر عدم الإقامة فيها •

ومنذ الليلة الماضية ، اتجه « سمنخرع » ، « نبخرع » الى
المدينة حيث تغير سلوكهما فجأة • كانا يجريان مع أطفال
مختلفة الأعمار • يكتشفان الشوارع ويختبئان فى عريش الأكواخ •
كانا يلعبان مع الكلاب والغزلان ويسبحان مع الأميرات الصغيرات
فى الماء •

اندهش أغلب سكان « طيبة » لجمال المعبد • لكنهم لم
يستريحوا للسلوك العام أثناء الاحتفال • ووقفوا ينتظرون ملكتهم
أمام سور المعبد حتى تخرج •

وضع اخناتون يده فى يد والدته ، ويده الأخرى فى يدي
وسار ثلاثتنا فى الطريق الى الأماكن المقدسة الى أن وصلنا الى المزار
المقدس • وهناك عند القربان كانت حباب البخور نحترق ،
ولا شئ على الجدران غير آثار الشمس المشرقة •

ولم يقم الملك أية شعيرة ولم ينطق بأية صلاة • وكل ما فعله
هو أنه انحنى برأسه انحناة خفيفة • كل شئ صامت •

ويرفع الملك وجهه نحو السماء التى تدخل كلها المعبد
بلا تحفظ أو قيود ويبتسم • فأتصور ضربات قلبه حين يفكر فى

أن يقدم حلمه الذى حققه الى والديه . ذلك البناء الذى شـيـده
وحققه ولم يكن غير أمل بالنسبة له .

العاطفة العمياء هى أخناتون . وفى هذا المكان ، تصوير
الأشياء غير الأشياء . فمنذ ان دخلت الملكة المعبد ، أخذت تطالب
بشعائر تعبدية دينية كدليل على عظمة الاله . هذه السماء التى
تدخل المعبد حتى مكان المذبح بلا حجاب ، ينبغى أن تبدو له
قريبة جدا من الأرض والى أقصى الحدود .

أراها تتكوم ، فتتناقص قامتها ، أراها وقد أنهكتها الزمان
وأرى رأسها تتحرك ببطء غير ملحوظ .

أراها هكذا وأخناتون لا يدرك شيئا من هذا ولا يحسه حتى
هذه اللحظة ، وأرى سعادته الغامرة بما استطاع ان يحققه .
وفجأة يتجه نحوها فىرى وجهها المتجهم وتصيح فجأة : أريد أن
أدفن فى طيبة .

وهكذا لايمد أخناتون ما يقوله ردا على هذه الصيحة .
وكل ما قاله هو انه ليس فى غنى عن مواعظها .

كان من قبل ، يندفع بحماس نحو المستقبل ، والآن كى
يتراجع عن الطريق عليه أن يبذل الجهد . وهاهى تلح مؤكدة من
جديد : عليك أن تقسم رسميا بأنك سوف تعمل على أن أدفن
فى طيبة بجوار أبيك « أمينوفيس الثالث » .

هذا ماقالت له فى الوقت الذى كان فيه يأمل ويتطلع الى
نقل رفات والده الى مدينة الأفق . وكان مندهشا حتى انه أخذ
يتساءل : ألم يعجبها التمثالان القائمان فى المدخل ؟ ويصفر لون
الملك فأخشى أن تخونه ضربات قلبه وأن يسقط على الأرض .

وهاهو لا يقدر أن يرخى شفتيه المزمومتين وأمه الملكة تنتظر
الاجابة وهى تقول : أقسم لى بذلك .

ثم تتجه الى تتلمس مؤازرتى لها .

أعرف أنه لا يريد أن يقف أمام رغبة والدته الملكة ، كما
أعرف أنه لابد أن تتساح له الفرصة كى يقبل لها وأن يفهم .
فأنتظر وعيناي تحدقان فيه .

ويرد قائلا لها : سبتكونى فى أيدي كبار الكهنة وتحت
سيطرتهم لو رجعت الى طيبة . فتقول : انى لا أخشى كبار الكهنة
مثلما أخشاك . وبالرغم من ذلك لابد من الاعتماد عليهم أستمع
الى يا ولدى .. هل تستطيع أن تفهمنى ؟

ويومئ برأسه موافقا .

— فى مدينتك هذه ، سوف يأسف كثير من المصريين على
معتقدات أجدادهم . وسوف يرتبطون دائما بألهتهم . ومن الواجب
على أن أحذرك من القلاقل التى تجلبها لك مفاهيم الدين الجديد .
انهم يطرقون اسم آمون على جدران المعادن فى الأقاليم . وينزلون
فى المقابر ليسجلوا اسمه بعلامات بارزة .

فيرد قائلا : وأنا لم أرد ذلك أو أوافق عليه ! فتقول :

ان عالمك ليس من هذا الوجود ، وحتى مؤيدوك لا يستطيعون
فهم أفكارك ..

ومع أن أختاتون لا يوافق على أنصاف الحلول ، تجده
يمارس الرحمة والتسامح حيال من يعبدون الاله القديم . وهو يريد
أن تستمد سلطته من حرية الناس لهذا فهو يمقت المتشدددين
والمتعصبين من أتباعه .

دعنى أقول أيضا : من يستطيع أن يفهم المعاملة الرقيقة التى يعامل بها الجميع ؟ ان مظهرك وتصرفاتك لا يفرقانك عن العامة . وينبغى أن يرفع الشعب ناظريه الى السماء كى يخاطبك فحين تكون مثله تنقص من قدرك وتشوه صورتك . فيقول أخناتون لأمه :

عن أية صورة تتحدثين يا أماه ؟ .

— على الملك ان يحافظ على وقاره الالهى وعلى قدسيته .

— وجه الاله فى كل مكان .

فنقول : انك تسير نحو الهاوية . وسوف تحطم كل شيء .
يرد قائلا :

اصبرى يا أمى ، كل شيء يسير كما كان . ومع الصبر ومسيرة الزمان تتبلور الأفكار وتصير مفهومة .

— ويرتفع صوت الملكة ولا تستطيع التحكم فى نبرته . فأقترب منها وأخذ بيدها . فاستاءت من ذلك وألقت الى بنظرة حادة وهى تؤكد من جديد :

لقد سادت الأقاليم روح الاستياء . كل الأقاليم ، وبدأ الأمراء يسخرون بأن الأعداء يهددون حدودهم لأنهم يشعرون بأنه لم تعد هناك قوة تساندتهم لها شأنها .

والامبراطورية ثائرة متدمرة . . وتستطرد قائلة :

كان الفرعون فيما مضى يكتفى بإرسال احدى فصائل قواته ، فتنزل العقاب بالتمردين . وكان هذا كافيا كى يستتب النظام .

فيقول الفرعون أخناتون : أنا شخصيا أكره اللجوء الى العنف وأتمنى أن يسود السلام البلاد . فترد قائلة :

أفق مما أبت فيه يا ولدى ! هل تعرف أن الأمير العمورى
« عزيزو » فى علاقات طيبة مع الحِيثِين ؟ أتعلم أنه يدعى أنك
لاستجيب الى طلباته على الاطلاق وأنت تكتفى بإرسال النصائح
إليه بأن يكون لطيفا يحسن المعاملة وأن لا جدوى من هذه النصائح
انه يسخر منك يا ولدى ولا تناسبه اللهجة التى تعامله بها .

وكان أخناتون يسكت ولا يرد

— استمع الى نصيحتى يا ولدى ، واحذر « عزيزو » وغيره
كثير . ثم ارتفع صوتها فجأة وصار يصل الى السماء ، كما ارتفعت
دقات قلبها وقالت بنبرة حادة عالية :

« انى أخشاك وأخافك لأنك تسير الى الهاوية . ويسود صمت
رهيب .

وأحست الملكة « تى » أن كلامها سيكون منذ هذا الوقت
بلا جدوى ، وان أخناتون وأتباعه سيضطهدون بجدار الواقع
الآليم .

وها هو يخرج من فتور الظاهر ويتجه نحو والدته ، ويحيط
كتفها بذراعه ثم ينحنى مقبلا وجنتها قائلا : اهدئى يا أمى .
سوف تدفنين فى طيبة كما تشائين .

ولم تطلب الملكة شيئا آخر من ولدها . كانت تعرف أن
ولدها سيظل ثابتا فى رأيه لا يحيد عنه .

تفرق جميع الناس الذين كانوا أمام المعبد . وكنت وحدى
مع نفر قليل أمام السور حين ظهرت الملكة « تى » بجوار ولدها
وزوجه نفر تيتى .
وحتى تلك الليلة ، لم يكن الأب « إيه » قد تم له لقاء

الملكة « تى » لذلك كان يترقب ظهورها • وحين رآها وتقدم نحوها ، لم تلبث ان سألته عن الطفلين • وأردفت قائلة :
إنها لاتسطيع البقاء أكثر من ذلك لأن وراءها مهام تنتظرها فى طيبة وأنها سترحل صبيحة اليوم التالى •

وحينما سمع « هويا » هذا الخبر أحس بالسعادة وهرب مسرعا ليخبر بعض رجال البلاط الذين كانوا يتشككون فى عودتها الى « طيبة » وكان القلق قد استبد بهم بهذا الشأن • فكانوا يخشون أن تقرر البقاء فى مدينة الأفق وان تستجيب لأفكار ولدها الملك الشاب •

قاموا يبحثون عن « سمنخرع » و « بنخرع » • كانا يلهوان فى أنحاء المدينة منذ الصباح الباكر • وكانت معهما كذلك الأميرتان الصغيرتان • كما لحق بهما أطفال آخرون • وقد جرى وراءهما الوزير الضخم « نخت » وهو يلهث • وتوسل الى أن أقوم مقامه بهذه المهمة الشاقة • وقد قمت بها خير قيام و « سنب » فى سروالى •

لقد أطلق الفتيان السهام وتدربا على المصارعة بالأيدي • وكنت و « سنب » على كفى نستمتع بهذه المباريات ، والشعبان يضرب راحته المجددة فى أكف الصغيرتين اللساء •

كما طلبوا منى جميعا أن أعيرهم أدوات الكتابة • وحيث أنهم ينتمون الى الأسرة الملكية ، فقد كان لهم الحق فى لوح من العاج لكنهم لم يتأفوا من اللوح الخشبى الذى أكتب عليه • كما أنهم لم يحتقروا أقلامى • تلك الأقلام التى قمت باعدادها من البوص النيل أمامهم لكن أشكالها أقلاما خطها صغير • وقاموا بغمس هذه الأقلام فى الوانى المصنوعة من الصلصال الأحمر والسخام • وقد رسموا جميعا • الواحد تلو الآخر •

ثم رحلوا بعد ذلك يجرون نحو ألعاب أخرى • وكان مع « نبخرع » حجر غريب يخرج منه الشرر • ولشدة إعجابه به ، كثيرا ما أعلن انه سوف يحمله معه الى مقبرته • وكان يقول :

حقا ! هذا الشيء الرمادى الخشن يضئ الى الشروات الخيالية التى يجب أن يدخرها « توت عنخ آمون » •

وكان أخناتون يتمنى أن يبقى أخويه الصغيرين فى « مدينة الأفق » ولكن « آيه » أخبره انه بالاتفاق مع الملكة « تى » سوف يقوم بتعليمهما فى « طيبة » •

وبينما نحن متجهون الى القصر اصطدم بنا الطفلان • لم يكن أى منهما يريد الرحيل الى طيبة •

واتجهت الملكة « تى » نحو أخناتون وقالت ساكون وحدى •

ولم يستطع الفرعون المقاومة أمام آلام الأم فقال :

— سيكون ماتريدين • ولكن ينبغى أن تتركى أحد الاثنين

معنا • وسرعان ما قاطعته بقولها : أنت يا سمنخرع ستبقى هنا • وهنبا بكى الأميران الصغيران حيث لم يسبق لهما ان افترقا •

فقالت الأم : لا أستطيع البقاء بلا ولد • والا فمن سـرف يحمينى من شيخوختى ؟

وبصوت منخفض ، كانت تتكلم الى « نبخرع » فامتسلم الطفل مقتنعا بما قالت • ثم قالت :

ان « آيه » سيعود معهما الى « طيبة » وسيهتم بشئونه • واقتربت « ميرينيه » قائلة : سوف آتى الى « طيبة » ذات

يوم • فربت على شعرها « آييه » قائلا : نعم • ستأتين الى طيبة
مع « سمنخرع » فيما بعد •

وتبحر الملكة « تى » فى اليوم التالى مع اشراقة الصباح
وقد حدثت تغيرات غريبة حول القارب الملكى • فقد قرر كثيرون من
أهل طيبة أن يبقوا فى مدينة الأفق بينما رجع الكثير الى العاصمة
الجديدة •

ولم يكن الشاطئ يوم رحيل الملكة مثلما كان يوم وصولها
الذى كان يوحى بالانتصار والنشوة • أما اليوم فهو خال من
جماهير الناس كالصحراء • وأقف بالقرب من الرصيف الهادى ،
دونما شىء يوحى بالبهجة • وحتى « سنب » حزن لذلك وتمدد على
الأرض مخفيا رأسه وهو يتأوه تحت شجيرة زهرها أبيض • ومن
الزورق لوخت الملكة بيدها تجاهها فى حركة سريعة ثم اختبعت
عن الأنظار •

وقد وقف أخناتون وزوجته بدون أطفالهما • وقفا فى
الانهيار وحزن حتى أن حالهما كان مبعثا لآلامى العميقة •

واستمرت نبوءات الملكة « تى » المتشائمة فى الوضوح
بجلاء • الزمن يتقلص والقارب يتعلق بحافة النهر ، ثم تبتعد
أشرعته رويدا رويدا حتى تختفى فى النهاية • ويغيب قائد
الشراع ويزداد بعدا ، ويترك وراءه خطوطا من المياه القاتمة •
وكان هذا أثرا ينساب طافيا تجاه طيبة • ثم صار بعد ذلك نقطة
تصعد فى النهر تجاه هذه المدينة •

وعلى الشاطئ وقفت نفرتيتى وأخناتون معهما فى تحجر
مخيف • وترددت يدهما فى اللقاء قبل أن تلتقيا • ورغم هذا
يقول من يراهما أنهما ليسا الا جسدا واحدا •

وما زال « سنب » يتألم عند قدمي .

الحياة تسير ، وتنبعث الحيوية في أحجار المدينة ، وتمتلئ القلوب بالحماس الدافئ . وتستمر مدينة الأفق في النمو والازدهار بفضل نشاط الناس فيها . ويردد الحكيم رعمس قوله : « لا تترك خلفك أحدا في مجرى النهر وأنت في القارب مبتهجا » . وعلى الساحل الآخر للنهر لم يترك هنا انسان .

نسى « سمنخرع » مدينة طيبة ، كما نسى أخاه « نبخرع » الذي عاش فيها بعد ذلك . ولم يفارق الأميرة « ميري » قط . وتبددت كلمات الملكة التي تنطوى على التشاؤم . ونسيها الشعب ولم يبق في ذاكرته غير زيارتها ذات الأثر العظيم الجليل .

ومع ذلك استشرى في المدينة سرا عدم الارتياح ، واستطعت أن أستشف مظاهر هذه الكآبة من تصرفات الناس . فقد عثرت ذات يوم على كمية كبيرة من الصلصال عند أحد الرؤساء وكذلك على رسوم للثعابين ترمز الى أفراد الأسرة المالكة بصورة كاريكاتيرية واضحة . ووجدت بعد ذلك رسوما على نفس الطريقة في مكانين آخرين ، وهى توحى الى من يتأملها بالسخرية . وربما يرى فيها رمزا للسخرية أو العصيان الصامت .

وكان اخناتون يطلب من رجال الفن أن يقوموا برسم الأشخاص بلا أى تجاوزات . ولم يكن يريد أن يخفى مساوىء خلقته عن أحد : ساقيه النحيفتين وركبتيه العريضتين وبطنه المتدللية وذقنه الطويل . وكان البعض يفرط في إظهار هذه الملامح ، وربما وجدوا فيها دليلا على نوع آخر من الكمال .

كنت أحب فمه ذا الشفة المنتفخة الذواقة ، عينيه الغائرتين اللتين تتسعان لرؤية العالم . وحينما كنت أغوص فى نظرتة ،

كنت أخرج من نطاق جسدى لأسبح فى أعماق نهر عظيم • ويكفى
أن أغلق جفونى يا بوباستوس لأجد هذه المياه من جديد •

ففى مياه نظرتة يبدو العشب والحجر ، كما تبدو الحياة
والموت وكذلك الماضى والمستقبل ، يبدوون جميعا كأنهم شىء
واحد •

وبعد مدة من زيارة الملكة « تى » وضعت صغيرتى « باكية » •
وكانت كل بناتى تشبهن أباهن الى حد كبير فيما عدا ابنتى الثالثة •
كانت السعادة هناك فى مدينتنا ! السعادة ••

وان الشغاف لتعبر عن هذه الكلمة بصعوبة بالغة ولكن ما هو
الاسم الذى كانت تلوكة ألسنتنا ؟ ماذا أقول وكيف أصف
السعادة •

•• واليوم أيضا كذلك ، يصل بى الأمر الى أن أحيى ما كان
يحدث رغم هذه التحولات • كما أجدنى كذلك فى بعض الأحيان
وأنا أصبح تجاه شمس للأزمان الغابرة فى مدينتنا المتهمة
المسلوبة وفوق أطلال الحاضر ، أصبح كذلك تجاه مدينتنا البعيدة
فى أعماق الزمان • وأصبح كذلك فى اتجاه مدن أخرى بعيدة ،
موغلة فى القدم •

وأحيانا أخرى كان الغضب ينتابنى • وكانت وجوه الرجال
تبدو مخربة ، مجرحة ، غامضة •

وهاهى « الانسانية » تبدو وفجأة كلمة فارغة من المعانى
غير ذلك المعنى الذى نريده لها • ويبدو لى الأمل غير جدير بالعقل
المستنير • لذلك افتقده • وحينئذ أقول لنفسى : لا يمكن للمرء
أن ينتظر من الناس شيئا •• عدا بعض التوقدات التى تمهد

الطريق الى الضياء والتي تسبق السقوط فى الهاوية العميقة ،
والتي تنبئ كذلك بالظلمات المرعبة .

وبعد ذلك ورغما عنى تقريبا ، يولد الأمل من جديد .
وهل ياترى يكون فى هذا شكل من أشكال الخوف ؟ وهل فى هذا
اتجاه الى التراجع ، اتجاه الى خداع النفس ومواساتها ؟ أم هو
بالاخرى اعتراف عادل بالصراع الأبدى بين الظلال والنور الذى
يرتبط ارتباطا وثيقا بين الانسان ؟

لقد أحسست بالمزيد من الذعر ، لكنه ذعر يضيؤه الأمل .
وعشت هذه التمزقات ، لكننى عشت كذلك الحب الكبير . لقد
قاسينا وعانينا من الخيانة وروح التخريب والضعفينة ، لكننا
شهدنا أعمالا كثيرة تجعلنا نتصالح مع الحياة والوجود .

ولهذا أيها الكاتب « بوباستوس » ورغم أن مشروعنا صار
خربا وفى حكم العدم ، فانه يحدث لى أن أعثر على ايمان بأمر بعيد
يتفلس منا ، فى أزمان أخرى وفى حياة أخرى .

ورغم وصايا الملكة « تى » استمر « أخناتون » الملك وزوجته
الشابة نفرتيتى فى السير عبر شوارع المدينة وهو واقف فى عربته
يحتضن زوجته وهى تحتضنه تماما مثلما كانا يفعلان من قبل .

وكان حبهما الذى رآه الجميع يؤكد ثقة كل منهما فى
منزلة هذه المدينة الوليدة وفى مصيرها . تلك المدينة التى هى
نتاج تفاهمهما . وكان الشعب يتعرف على نفسه من خلال سعادة
الزوجين وتحمسهما للحياة ومن خلال وقارهما وهودثهما فى
الحياة .

وكانت النسوة تباركن هذا المشهد . ورغم أن النساء

المصريات تتمتعن بالحرية أكثر من نساء الحضارات الأخرى ، فإن واحدة منهن لم تشترك فى حياة زوجها الخاصة بمثل هذه الدرجة البالغة كما تشترك الآن نفرتيتى . لهذا أخذت كل امرأة مصرية تعتبر نفسها رفيعة القدر والمنزلة قياسا الى المكانة التى تتمتع بها زوجة الفرعون فى نظره .

من أجل هذا اتخذت ما من شأنه أن يحدث هذا التغيير بالتدريج وذلك رغم أحكام السلف الجائرة حيال الجنس الآخر .

لقد وجدت الملكة حتشبشوت أنه لى تكون جديرة بالحكم والاستمرار فيه ، وجدت انه لابد لها من أن تمارس الحكم فى ظل النضال الدائم . . فارتدت ملابس الرجال ووضعت اللحية . واستخدمت سلاح القوة والفتوة والهجوم تماما كما يفعل الرجال .

والآن ، ماذا تفعل الملكة « تى » ؟ تلك المتملقة المخادعة الغضوب المشاكسة الماكرة ذات الفكر الضحل . أليست أسيرة لمزاجها الفريد الذى تمكن منها وسخرها لتلعب هذا الدور من وراء الكواليس ، ذلك الدور الذى يسند فى العادة الى الوصيفات ؟ انه دور يتمثل فى اثاره المؤامرات وتديرها ، وكشفها من أجل مناصرة الابن أو الزوج وذلك فى الوقت الذى يقوم فيه بخداع هذا الابن أو الزوج .

لا وجه للشبه فى هذا المقام . كان أخناتون يحب نفرتيتى لما كانت عليه من اتزان الشخصية . كان يريد لها هى ولذاتها .

وكانت هى الأخرى الرقيقة التى لا يجب افسادها . وكان أخناتون فى حاجة الى زوجة لها نفس صفاته وامكانياته ، ومغايرة له فى نفس الوقت حتى يجد للحياة معنى . فكانا يستقبلان الرعايا سويا . وكان الواحد يحل محل الآخر حسب الظروف والأحوال .

كانا يسيران للنزهة والأيدى متشابكة • كانا يجلسان جنباً إلى جنب فى الاحتفالات • وبهذا كان الفرعون يعمل على استحداث عرف جديد فى هذا المجال وكذلك فى المجالات الأخرى •

وكننت أحياناً أرافق الملكة نفرتيتى أو الملك أخناتون إلى الورش • كانا يمتدحان ما يعرض عليهما من الأعمال ويطلبان المزيد • كانا يناقشان الفنانين والصناع فى تلك الأعمال • وقد تجرد الفن فى هذه المدينة من أية قاعدة ، كما أن الحياة فيها أصبحت لا تخضع للقواعد •

وهجر الفن ما كان عليه من الجمود والأصالة ، وبدأت روح الانتعاش والحركة تسرى فى دمائه • وأصبح العشب المتشابك وأشجار الكروم الملتوية وكذلك كتابة الوجه وما إلى ذلك من المظاهر ، أصبح كل هذا يقدم مادته الجمالية للفن • وقد بلغ النقش البارز الجسم كما لا تختلف درجاته •

ووجد الجسم مكانه الدافئ الواقعى فى كل مكان وسكنت الروح الأرض •

وقد رأيت « جيهوتى » وهو يفرغ من تحت رأس تمثال من الحجر الجيرى تعلوها تسريحة شعر « شنيون » • وتحت أى الأنقاض مدفونة تلك الكنوز هذه الأيام ؟ هل ستراها العيون ذات يوم ؟

وشاهدت ذات يوم مولد ملامح الملكة نخت ازميل « يك » أعظم المشالين على الإطلاق •

وكان « بك » يكبر الملك وزوجته بحوالى اثنى عشر عاماً • وكان وجهه المتناسق يتمتع بجمال هادئ • وقد بدأ الشنيب

يغزو شعر صدغيه • وقد أوقف حبه الكامل للفرعون وزوجته
نفرتيتى •

وكانت الصغيرة « باكية » قد ولدت بعد أن بلغت الملكة
عامها الثلاثين أيام الاحتفالات • وفى هذه الأيام وحين تأمل ذلك
الوجه الذى مرت عليه عشرون سنة أخرى ، أجد جمال الماضى وقد
بدأت تظهر عليه بعض التجاعيد • كما ظهرت حول عينيها هالات
زرقاء مع انتفاخ حدقة العين ، كما أجد الرقبة أقل تماسكا •
وغالبا ما تنظر الملكة بدون تكبر فى حركة تتميز بالأنوثة الفتية •
تنظر الى أعلى كى تتنفس الهواء العليل •

قبل ذلك ، ولأيام كان « بك » ينحت لها التمثال ، كانت
هناك دائرة حول عينيها اليسرى تتمثل فى انتفاخ بسيط حول
تلك العين • وكان ذلك مرضا شائعا • وكانت مضاعفاته وآثاره
بطيئة فى الظهور لكنها فى نفس الوقت خبيثة • وقد جعلت هذه
الاصابة جمالها أكثر رقة وجاذبية • وقد أحسست شخصا بأن
« بك » نفسه كان متأثرا لذلك •

وكان تقابل كل من التمثال وصاحبه نفرتيتى يهز مشاعرى
كثيرا • كان هذا يشذب الصلصال ويرققه • ثم يفلق عينيه
ويترك أدواته • وبعد ذلك كان ينحس جبينها طويلا وخدودها
وفمها بأصابعه • كان يحاول أن يوقف فى هذه المادة الجامدة
خفقات الجسم الحى ، واهتزاز الكائن الحى ودفء الدماء ، كان
يحاول أن يحس بلمس بشرتها اللذيذ •

وكان وجه الملكة قد تعرى فجأة •

أما عن الملكة نفرتيتى ، فكانت نظرتها تتابع كل لمساته •

كانت ترتعش لرؤية هذه الأصابع النشطة اليقظة التي تجوب
ذهابا وعودة وجهها المكشوف .

هل أقول من عندي شيئا بهذه الكلمات ؟ أليست هذه
الأوصاف والانفعالات هي أوصافى وانفعالاتى فى بعض الأحيان ؟
أليست هذه الكلمات كذلك كلمات عقل أفسده الخيال ؟ وهل
ياترى أقدم الى قلوب الآخرين وعقولهم ما يحسه قلبى ويحدث به
لسانى أنا وحدى ؟

ومع ذلك ، فقد أجهدت نفسى - وشرف مينو ! وليشهد
والدى أمينو على صحة هذه الكلمات ودقتها . أجهدت نفسى كى
أظل أمينا فى تسجيل التاريخ وكتابته . ولكنى ورغما عنى أتهرب
من ذلك أحيانا ، فيتسرب جوهرى وتظهر ذاتى بين الكلمات ورغما
عنى . وعليك أيها القارئ ان تنتخب وان تميز ما ينبغي ان
الريبة والشك .

وهناك فى المستقبل البعيد يا أخى القارئ - وبهذا أحب ان
أسميك - لو تصادف أن أفلت هذا التقرير من الغرق والفناء
والنسيان ، تذكر - وقد أنبأتك بهذا عند فاتحة هذه المذكرات -
تذكر انها ستصل اليك وقد أصابها التلف أو التغيير ، لأنه ينبغي
ان تدرك أن هذا المخطوط سوف ينتقل من يد كاتب الى يد كاتب
آخر قبل أن يصل لتقرأه بين يديك ، وأن بعض التعديلات سوف
تعتريه كل مرة ولو بدرجة بسيطة . وأنه سوف يعبر قرونا
وقرونا ، وسوف يتناوله كل واحد وفق مفاهيم جديدة يدون
أدنى شك .

وثق أيها الصديق فى كلامى هذا ، فذلك ما يحدث فى
قلوب الرجال العامة بالايان : هذه ليست قصة خرافية ، أنها

حقيقة واقعة • وان كنت أحكيها لك أمرا حدث في الحقيقة ،
ذلك لأن حقيقة مدينة الأقن ينبغي ان تؤثر في ذاتك أنت أيها
القارئ • قارئ كل مكان وزمان دون أي اعتبار للطريقة التي
سوف يسردها لك الكتاب •

وان هذا الاقتناع من جانبي ، ليساعدني على المثابرة على أن
أتم هذه الوقائع التاريخية • استمع الى ما أقول ••

ها أنذا في ورشة « بك » وقد أكدت على الملكة أن أبقى
بالقرب منها في هذه الأيام خلال جلسات العمل مع المثال •

أترك « سنب » عند الباب مربوطا في حبله • ولأنه مرح
ظريف ، فسوف يعيش في جميع الأرجاء ، وسوف ينقل الأشياء من
مكانها حسب هواه • أحاول أن أكون رجلا مفيدا • فأقوم بإزاحة
الغبار من فوق التماثيل الصغيرة المجهزة من الصلصال المحروق •
أبلى قطع الفخار ، أنظف الأدوات وأفركها أو أسكت •

وأبقى لساعات ثابتا متكورا مثل رغيف خرج من الفرن •

أبقى منحنيا على مقعد من الجرانيت •

— سوف أجعلك خالدا يا بوباستوس ذات يوم !

— مع سنب ؟

— مع سنب •

وحدث ذلك بالفعل بعد مدة قصيرة • لقد كلف « بك » أحد
تلاميذه بأن يعيد تجسيدي في وضع الكاتب على قاعدة مخرقة •
فقام هذا ينحت هيئتي عند أقدام موكب من الموسيقيين ذات
السيقان القافزة الواثبة ، ومعى لوحى وفيه آنية الحبر على ركبتى
وأقلامي الثلاثة خلف أذني • وكان « سنب » في الطرف الآخر من

الافريز • يقظ كأحد الآلهة • وضاعت صورتى فى صحبة « سنب »
والموسيقىات !

مخبرة الآن ومبعثرة ، تلك المطبوعات الحجرية ، ومنها
ما هو مدفون فى الرمال ، يا جامعو الكروم ، يا أيها الصيادون
ويا من تحصدون القمح ! وكما ابتلعت أسراب طيور الترغلة تلال
الأسماك ، وكما قضى على قطعان الأوز والنعاج ، ها هى الآن كذلك
تلك الأعمدة ، لقد انهارت وانهارت معها أقراص الشمس ، وتلك
الوجوه الملكية كذلك •

« شيدت مدينة الأفق ومع كل هذا كنا نسعى الى تجميلها
وتطويرها • وكانت السعادة مرتسمة على وجوه سكانها • وكانت
القوانين سهلة غير صارمة • وكنا نرى فيها الاقتراب من الكمال •
وكان أخناتون يريد أن يكون التعليم فى متناول الجميع •
كان يرى أن التقدم والتطور أمران ضروريان للمرء من أجل أن تعم
الفائدة جميع الناس فى النهاية •

كان ينهض مع الفجر ويستمر فى كتابة نشيده للشمس على
ورقة البردى • وهناك فى ساعة الغسق ، كان يسمعون بعض
السطور :

« اشعتك فى كل الوجود

على الماشية والمراعى

على الطائر والمخلوق

على كل قارب يطفو فوق النهر

حتى يصل الى البحر العظيم

انك ايتها الشمس

لتبديد الظلمات

عندما تشرقين

ينهض الرجال

من أجل مسيرة الحياة !

وكان الناس يتنزهون في الحدائق العامة ، ويتناقشون في
الميادين . كان الشعب يتحرك والحيوية تغمره . وكانت الشوارع
تزدحم في جميع الأوقات .

وكان الأطفال والنساء والرجال من جميع الأعمار ، وحتى
الغرباء والأجانب القادمون اليها في أعداد كبيرة ، كان كل هؤلاء
يحبون هذه المدينة ويعملون فيها . وكانوا يتجولون في جميع
أرجائها .

وبعد ذلك كنت أذهب بمفردي وبناتي في ورشة « بك »
كنت أجدني هناك . ومع ذلك لا أجدني في ذلك الوجه الذي يولد
من بين يديه . وأحيانا كان « بك » يتوقف عن العمل ويغلق
عينيه . وكانت أصابعه تمر بطول الرقبة والذقن والشفيتين
والصلصليتين . كانت أصابعه تجس كل جزء من هذه البشرة
الصلصالية .

أما وقد انتهى كل شيء ، وأن نهايتي قد اقتربت ، فاني
أكشف نفسي أمامك ايها الكاتب . أنسلخ من كل شيء حتى من
هذا الارتباك والخجل الذي وضعتني فيه لمسات المثال الخطيرة
والبطيئة .

وعلى وجهي الحقيقي ، كنت أريد أيدي المثال « بك » لقد
رغبتها وناديتها .

عيوننا تتقابل ، تتعارف ، تتراوغ وتشجاذب كذلك .
الصخب يسرى فى دهمى . ليتنى قبلت أنامل هاتين اليدين واحتفظت
بهما طويلا لتضغطا على شفتى .

كان « بك » يسيطر على لمساته وحركاته ، وكان يحتفظ
بأفكاره . وكنت أنا كذلك . واستمرت هذه الحرارة أياما حتى
كانت المفاجأة التى جعلت كلامنا يستدير بعيدا عن الامر ، كما كانت
هى التى قربت كلامنا الى الآخر فى نفس الوقت .

وهنا تذكر جيدا يا بوباستوس أنى طلبت منك مرافقتى .
وكان حضورك وجوك المرح يكسران الدائرة السحرية ويمنعان من
أن يكون الموقف ثقيلا .

وماذا كان سيكون الحال أثناء قرون أخرى أو قارات أخرى ؟
كنت أحب أخناتون ، ولا أشك فى ذلك . ومع ذلك فقد
كانت رؤية « بك » وذكره تشيران عندى نوعا من الاعتمالات يقولون
ان الرجال يعرفون كيف يعيشون أكثر من حب فى وقت واحد .
أما نحن ؟ . . وربما تعرف النساء كذلك أيضا ذات يوم فيما بعد .
أما أنا فلم أشعر به فى الوقت الحاضر الا كنوع من التمزق
والاضطراب والشكوك . وفى وقت ممكن أن اعتبره مختلفا عن
وقتينا هذا ، وقد يكون فيه كل شئ ممكنا ، هل يمكن أن
أعيش المشاعر مناصفة .

ما الذى يمكن أن يحدث ؟ أأعيش الآن تماما هذا العيشة
وهذا الدوار ؟ ثم بعد ؟ . . . ليتنى أستطيع الاختيار . ان حرية
الاختيار تبدو لى على الدوام كاملة ، حسب ظنى . وماذا نعرف
فى الحقيقة عما قد نفعله فى ظل ظروف مغايرة ، وفى عوالم
أخرى لا نشك فيها حتى مجرد الشك ، وخلال حياة أخرى مغايرة .

أحب أخناتون والشك لا يتطرق الى فى هذا الشأن ولو للحظة .
ولا رد على اخلاصه الا باخلاص من جانبى . ورغم ذلك ، وخلال
عدة أيام ، غمرنى « بك » وصارت صورته تعيش فى لحمى وتسرى
فى عروقى .

وأثناء حزنى العميق ، لا أكف عن الحديث اليه . يجذبنى الى
شاطئ المياه أو نحو رمال الصحراء . يقودنى خلال أوقات الغسق
وفى الصباح . أتحدث اليه وأسمعه . وأتمنى حضوره فى كل لحظة
من النهار .

حلم يخلصنى مما أنا فيه .

بينما كنا نتنزه - أنا واخناتون - سائرين فى الطرقات بين
الحقول ، تركنى فجأة ليختفى فى احد حقول الذرة . وكانت
تفصلنا احدى القنوات .

كان يبتعد عنى بخطى واسعة . وفى لحظات كانت سيقان
الذرة الطويلة قد أخفته عنى . وكانت هذه السيقان تتمايل أحيانا
أخرى ليظهر فجأة فى أشعة الشمس بهيئته المؤلمة . وكنت أناديه
لكنه كان يداوم المسير فى طريقه دون أن ينظر ورائه .

وصارت المسافة بيننا واسعة ويتعذر عبورها . ولم يستمع
أخناتون الى نداء أبى على الاطلاق . ولم أكن أستطيع اللحاق به
كذلك - كانت هناك قيود تعوق ركبتى . وكان الطين يمسك فى
ساقى .

وحيثما استيقظت من هذا الحلم - وكان ذلك ساعة القيلولة -
خرجت من مضجعى قفزاً لأبحث عنه .

وجدته جالسا فى جمع من مستشاريه ، كانوا يتبادلون الرأى
بشأن اسكان حى النساجين بالمدينة . وحيثما رأيت أخناتون ، لم

يلبث أن نهض وأجلسنى جواره • ولهذا وفى الحال تبددت أحلامى.
لهذا الاستقبال الحسن وحنانه الزائد •

وفى تلك الليلة ، وبينما كان يعبث بشعرى ، خيل الى أن.
الشكوك تراوده حيال مشاعرى نحوه خلال الأيام الماضية •

وقد وردت الى خاطرى فجأة ذكرى آلامى ومعاناتى أيام.
(تاديهيبا) وبالرغم من ذلك لم نتحدث بخصوصها •

كانت ذراعا صلبة وخفيفة • وكنت أشعر وأنا بين ذراعيه.
بالحرية والراحة ، لهذا كنت أتمنى - حينما كنت أتركه وحيدا
مع نفسه - أن أفتديه من كل خطر يهدد حياته •

وبعد ذلك بأيام ، كنت أبقى ساكنة أمام « بك » الذى كان.
ينحت تمثالا لوجهى •

الجزء الثالث

ورغم أنى سعيد فى مدينة سعيدة ، مر عليها حتى الآن
اثنا عشر عاما ، الا أنى أستيقظ فى منتصف الليل وجسدى
يتصيب عرقا من الهموم .

وقد تكون حادثة واحدة كافية أو مصيبة غير متوقعة ليختل
توازن هذه المدينة وتنهار فى النهاية . وحيث ان هناك دعائم
صخرية تسد الأفق فى أماكن متعددة ، كنت فى نفسى أقول انه
لو سقطت صخرة واحدة ، فان الشاطئ كله سوف ينهار .

وكلما كنت أطارده هذه الأفكار ، كآنت سرعان ما تعود مرة
ثانية ورغم أن المدينة كانت آمنة ، وكان الحال مستقرا ، وكان
الشعب متماسكا ، فقد كان المستقبل فيها مبعثا للظنون
والتخمينات .

كانت الأمور طيبة بالنسبة لى • وكنت كذلك على علاقة مع « نوبا » عاملة المجداف التى اعترفت لى بجرأة بالغة بأنها انقطعت عن زيارة المدير « توتو » منذ أن اكتشفت ان تفكيره أعوج مثل اعوجاج خلقى • لهذا غفرت لها •

كنت سعيدا ومسرورا • وأعيد تكرار ذلك ثانية • لقد كنت فى قمة السعادة كأغلب سكان مدينتنا • ومع ذلك ، كنت أرى أننى فوق قمة أستطيع ان أسيطر منها على ما حولى من الطبيعة • ومع ذلك ، وبينما كانت عيني اليسرى تمتلئ بالسرور والثقة ، كانت اليمنى متشككة فيما سوف يحدث •

كانت تلك العين حريصة على الا تتركنى أعتقد لفترة طويلة أن الشعوب الهادئة لها تاريخ ، ان المدن التى تسودها السعادة تظل خالدة على الدوام وأن الحب عمره طويل !

وهكذا خلق الناس ليندفعوا بطبيعتهم الى الهاوية ، تحذوهم فى ذلك طبيعتهم الخالصة • وهل ياترى تم العمل بهذه الطريقة وحسب هذه الطبيعة حتى ترتفع المدينة على فوهة البراكين ؟

هنا ، أقيمت الأحجار وارتفع البناء ، وسكن الناس فى هدوء وعاشوا كذلك فى هدوء • وأخيرا نستنشق هواء الراحة والاسترخاء ! وكان بإمكاننا أن نسنق قوانين عادلة وكثيرة ، أن ندعم حرية الكلمة وان ننشر العلاقات الطيبة بين الإنسان وأخيه فى داخل المدينة • تلك العلاقات التى كنا نتطلع الى ان تسود رويدا رويدا فى كل أرجاء مصر وفى كل البلاد المجاورة •

ومع ذلك ، فاتى لا أعرف كيف أفسر استشعارى بالشفاء ولماذا كنت استشعره • كنت أترصد هذا البلاء وأبعد فى الوقت نفسه مايدل عليه وينذر به •

ثم وقع ما كنت أخشاه .

وعقب الشفاء من المرض الذى كثيرا ما عانت منه ابنتنا الثانية « ميكيه » ما لبثت أن ماتت الصغيرة فجأة . كانت رقيقة البنية ومع ذلك كانت صلبة العود مثل أبيها . كانت تشبهه فى كثير .

كانت « ميكيه » فى التاسعة من عمرها . وقد رأيت « أخناتون » فى الصلاة الضيقة المستطيلة حيث لفظت أنفاسها . رأيتة يحمل جسد ابنته عاريا فى يديه . وكانت الحرارة مازالت تسرى بفتور فى جسدها .

أراه كما لو كان ينظف هذا الوجه الصامت بأنفاسه . أراه ينفخ فى يديه ويفعل ذلك على هذا التمثال الهادى . كان هكذا يفعل كما لو كان يريد أن يبقى بأنفاسه الحارة تلك الحرارة الهاربة ، كان يفعل ذلك كما لو كان يريد أن يشيد مانعا أمام هذه البرودة التى تغزو جسدها عضوا تلو الآخر ثم تثبت فى النهاية .

وماتت الطفلة لكن الباقيات لم تظهرن من بعد . فقد أمسكن عن البكاء حتى يعرف اخناتون ذلك بنفسه ويتقبل هذا الفراق ، وحتى تأتى اللحظة التى يضع فيها طفلة الباردة المتصلبة فى مثواها الأخير والذى سبق اعداده وتغطيته بقماش أبيض .

وهنا ارتفع الصياح والنواح . وتلك متأوهات تهز الأذرع والرؤوس . وتنتحب البنات « ميريه » و « أنخيه » و « باكيه » . ومالت كل واحدة منهن نحو الأخرى . وقد حملت إحدى الخادومات المولودة « نيغير » الى حجرة أخرى . تلك الصغيرة التى تقوم بارضاعها واحدة من الخادومات . وقد جلست الممرضة العجوز

ومعها « سيكي » على ركبتها ، جلست تؤرجح الصغيرة الممتلئة الى الامام والى الخلف لكي تبدد حزنها .

وتمر الصنور في شريط أمام عيني الجامدة دون أن أدري عما اذا كنت متواجدة أم لا . ونحن كذلك لانبدو الا وجوها في براويز وقد أذهلتها الفاجعة .

لقد كان حضور أخناتون ذا تأثير كبير بالنسبة لي . وكان هذا التأثير يأتي الى على شكل موجات تغمرني ، ثم مالبث أن هدا هذا التأثير . وقد انحنينا على هذا الجسد الجامد المستسلم لكل النظرات . نتأمل فيه دون أن نراه ومن غير أن نصدق .

وانتشر الصياح حولنا بمزق نسيج الهواء . وكثر البكاءون . وأخذت الضباع تعوى في داخل بطوننا ، كما أخذت الصقور تخطط أحشاءنا . ولكننا ظللنا مغمورين في سكون جسدنا المنزعج .

وبعد ذلك بمدة طويلة ، مدت ذراعي نحو أخناتون وأحطت جسده وأحسست ببشرته تحت بشرتي . وأحسست بحياته تدق في داخل راحة كفي . حياته الميتة وحياته النابضة .

وأخيرا انهمرت الدموع من العيون .

وابتداء من تلك اللحظة ، بدأت صحة الملك في التدهور . لقد هزه موت « ميكيه » وتمكن المحيطون به من ادراك ذلك بسهولة .

وهل يمكن ان أتحدث عن « مقدمة » ذلك ؟ لست ساذجا لهذه الدرجة . لقد سخرت علانية من التنبؤات والطلاسم والتعويذات ومن الأيام التي أسموها أيام الشؤم والنحس وأيام الرخاء

والاستبشار • سخرت من مظاهر هذه الاعتقادات التي ينتج عنها
الخوف أكثر مما يتجلى فيها من الحقائق •

ومع ذلك ، فقد يحدث أن يتعارض حدث ما مع مسيرة
الأحداث أحيانا • يحدث أن ينحرف الطريق عن المسار • فحين
يعترض حجر مسار العربة في الطريق ، تتعثر وتنقلب • وهنسا
تبدأ المأساة وتتوالى فصولها • وتكون بقاياها في الطين وتنهار
الواجهة • كلمة مزعجة وحدث أكثر ازعاجا •

وتزيف الأمور ويختلط كل شيء الى أقصى الحدود •
وكنت على الدوام شهيدا على تتابع تلك الأحداث •

والتاريخ - ذلك التاريخ الذي استطاع والدى واستاذى
أمينو أن يرسخ في عقلى أصوله وبأصرار - ملئ كذلك بتتابع هذه
الأحداث • فالأوبئة والمصائب والأزمان تتوالى جميعها على اناس
وشعوب بأكملها ، فتتبعها لفترات طويلة •

وأى سبب يمكن أن نرجع اليه تلك الثروات السيئة الرديئة ؟
ان الانسان لساذج ومجبر فى نفس الوقت أن ينحنى أمام القدر ،
مجبر ان يخضع تفكيره الى ختسية المصير • ومع ذلك يبقى فاعر
الفم مشدوها أمام ما يصيبنا من فيوضات المصائب دون تمييز •

وقد حدث أن قمت بالتجول فى المعبد مع الملك • وكذلك
دعانى الى السير فى أرجائه مرة أخرى بعد رحيل « ميكيه » •

ومنذ أيام قليلة ، كنت أترك « سناب » فى رعاية « سيكى »
التي كانت فى أيامها الأخيرة • وحسب ما أظن ان حركاته المضحكة
جعلته ظريفا فى تلك الأيام •

وعند القداس ، وقع بصرى على مالم أراه من قبل • لقد

انبطح أخناتون ساجدا على الأرض • وقد كنت آراه من قبل
يقف عند الهيكل رافع الرأس دائما •

وقد تأثرت نفرتيتى التى كانت فى صحبتنا لكنها لم تفعل
مثما فعل على الرغم من ذلك • وقد كرر الفرعون ما فعله فى المعبد
بعد ذلك بمفرده • فهل ياترى كان يلوم نفسه على أنه تغافل عن
الهة حتى تلك اللحظة وانشغل بأمور المدينة ؟

وارتفعت كلماته وصلواته الى سماء المعبد وهو يتوجه
بكلماته الى عنان السماء • وقد كان لهذه الكلمات أثر عظيم •
فقد جعلت هناك مسافة بين أخناتون وبين أغلب الناس بالتدريج
دون أن أدري ، هؤلاء الناس الذى كان يسعى وبكل الحماس الى
أن يرتبط بهم •

مصر التى مضى عليها العديد من السنين فى هدوء ، كانت
لديها أسباب للقلق والقلق • مصر ، تلك القمة العريضة التى
كانت تمتد منها أذرع كثيرة ، تلك التى كانت تخضع لها الأقاليم
المفتوحة •

وكان سكان وادى النيل يتذكرون جيدا أن ملوكهم المغاوير
قد أنقذوهم مرات كثيرة من الأخطاء وكذلك من استعباد الشعوب
المجاورة المحبة للحروب •

لقد كان هؤلاء حكماء متشككين ، لهذا لم يجهلوا على
الاطلاق أن الخط الذى سار عليه الفراعنة ، انعم على هذا البلد
بامبراطورية شاسعة من جراء روحهم القتالية • وحينذاك أصبح
الغزو « عملا ساميا » وكان الهجوم « حدثا براقا » •

وكانت الحرب هى شغلهم الشاغل ، فكانوا يعرفون التحكم

والسيطرة ، كانوا يعرفون كيف يقبضون بيد من حديد بمقاليد السلطة .

وكيف يمكن أن تصير مقاليد السلطة فى يد « أخناتون » المتراخية المسرفة ؟ هذه السلطة التى كان نفسه يهاجمها ويفضحها ، ماذا يصير هو من جرائمها ؟

لقد كان شعب مصر يتعرف على نفسه من خلال هذا الملك الذى جبل على الرفق وحسن المعاملة أكثر من العدا ، وعلى الرقة أكثر من العنف . الى أين كان بمقدور هذا الشعب ان يسير مع هذا الملك ؟ والى أى الحدود ؟ ألم يكن هذا الملك الذى ارتفع قدره وعلت مكانته يبتعد عن الشعب كذلك بدوره مثل غيره فمن سبقوه ؟

وانطلقت الألسنة بالكلام فى مدينة الأفق ولم يظهر أحد التقوى أو الأخلاص ولا الأحقاد أكثر من اخناتون . وكان والدى أمينو يقول : « دع الكلام الطيب يدخبل كى يكون بيننا » . أما الكلام الآخر ، فليبق فى الخارج والا أغرق هذا الكلام فى ظلمات جسدك . وعليك أن تظل يا ولدى « بوباستوس » صامتا . ان صمتك يجعلك تهزم الأعداء » .

وبينما كان أخناتون يعيش على الأمل فى أن تتوحد أقاليم مصر تحت ظل عبادة واحدة وحب واحد - وربما كان يأمل فى ان تتحد الدنيا كلها حول هذا المفهوم - كان أعداء مصر يتزايدون . كان « عزيزو » العمورى يحاصر مدن الحدود واحدة وراء الأخرى وبذلك تحققت نبوءة الملكة « تى » ، حينما قالت لولدها أخناتون أن يحذره .

وتعاقبت الرسائل القادمة من الأقطار المجاورة تحمل توصلات والتماسات الى الملك . وكانت تغد اليها على ألواح من الخزف

أو الفخار . وكانت الكتابة على هذه الألواح مختلفة عن طريقتنا في الكتابة فقد كانت حروفها ذات زوايا حادة وبدون صور . لكن أغلب الكتاب كانوا يستطيعون فك رموزها . وقراءتها بعد ذلك .

وكان أمراء وحكام مدن الحدود يرتعدون من تهديدات « عزيزو » العموري الذي كان يتحالف مع المتذمرين ويعمل على تقوية قواته . « ان مدينتك « تويب » لتبكي ! أسرع لمساعدتنا ولا نحب أن نعاني ما عانت « تي » أو « قادش » . لسوف يغزونا « عزيزو » لو تأخرت جنودك وعجلاتك في المجيء من أجل نجدتنا . سوف يفعل ذلك مثلما قام بغزو أخواتنا المدن الاخريات ! » .

وكان حلفاؤنا الملوك يهاجموننا بصياحهم وشكاويهم . كانوا يقولون : كانت الأراضي المصرية مليئة بالمغيرين الذين كانوا يروعون الرسل ويسلبونهم . وكان هؤلاء الرسل يرفضون المرور بهذه المناطق الخطرة للوصول الى الفرعون .

وكان أمراء الدول المجاورة - والتي كان التاج يضمها الى سلطانه - يردون بالاتهامات ويجرمون من قاموا بذلك . ووصل الأمر بأحدهم الى ان تمادى في العداة حتى انه اعتقل سفير « مدينة الأفق » وألقي به في السجن . وكان الملك قد أرسله لينصح هذا الأمير ليتحلى بالاعتدال والتسامح .

أغرق هذا العمل العدائي أخناتون في الحرج ، فناقش الأمر مع « بخورو » أحد قواده المخلصين . فأوصى هذا الأخير ومعه الجندي القديم « ريبادي » بضرورة ارسال جيش الى الحدود بسرعة خشية أن تتفتت الامبراطورية عالم يستتب النظام من جديد .

ورأيت الملك يشغنى أمام هذا الرأي .

والآن أدرك « بخوزو » و « رييادی » معه ، أنه لابد من العودة الى استخدام السلاح بعد ان كانا من قبل يؤيدان أفكاره الداعية الى الهدوء وعدم استعمال العنف .

فهل ياترى سوف يوافق أخناتون الآن على ذلك ؟ وهل سيرد بالقوة على القوة ؟ وما قيمة « مدينة الأرض » في هذا الوقت بالنسبة لمكانتها الروحية ؟ وإلى أى مدى ستكون قد غيرت وجه الامبراطورية التى كونتها الحروب ؟ وهل كان على أخناتون أن يتقبل الخيانة وان يدين الأقل ؟

— وهل من الأفضل أن يتراجع عن الامبراطورية حتى لا يضحى بحياة الناس !

واستطرد الرجلان : لو تأخرنا فى اتخاذ القرار سيكون الأمر أكثر خطورة .

— سيضيع كل شيء .

— ولا يمكن للحب وحده ان يدير طويلا شئون البلاد .
وكانا يؤكدان مرارا :

— انه لابد من القتال . ان الحلم لا يستطيع أن يفعل شيئا أمام القوة والعنف . واذا أردنا أن نغير كل شيء ، فلا بد من التأهب للدفاع عن هذا التغيير الى آخر المدى .

— العدو يقظ . وأى عدو يقبىء الى ما لديه وما فى حوزته من تلقاء نفسه دون أن يستمر فى عدوانه ؟

— وهل سيدخل أخناتون فى الدائرة ؟ تلك الدائرة التى يدعو الثأر فيها الى مزيد من الثأر ، والأحقاد فيها تثير المزيد من الأحقاد .

وعاودته نظرات مخيفة الى الذاكرة : توضحيات جسيمة ،
أبادات واهلاكات بالحمنلة .. كان يطأطئ الرأس أمام هذه
التصورات .

— أيتها الأصدقاء ، لقد كنا نأمل ..

— والأحداث تدفعنا .

كان الملك يتخبط في تقليب الأمور ، وربما كانت حيرته
تزداد . وقد يبحث عن بدائل مغايرة :

الحياة .. أى شئ أعز من الحياة ؟ وبأى الحقوق يمكن للمرء
أن يصادر استمرار الحياة ؟ ..

ولز يتراجع أخناتون عن مبادئه . وهنا ينسحب الرجالان .

رأت الملك « أخناتون » وزوجته « نفرتيتى » ساعة الغسق .
رأيتهما يسيران غدوا ورواحا بطول النهر وكان يتكى عليها من
وقت لآخر .

كنت أسير وراءه مثل ظله . كنت ظله القليل الانشراح
والبهجة من ذلك الظل الذى كان يتعقبه من قبل فى شوارع طيبة
القديمة أثناء الليل . كنت ظلا ملتصقا بالأرض ، مضغوطة .
كنت ظلا سميئا قصيرا وحزينا . أشبه فى قليل صورة أخناتون .

وكذلك لم تتركه الملكة قط . كانت تتحدث معه ، تضع
يدها فى يده . وكنت على يقين أنها تشجعه على الاستبسال . ثم
يتركها أخناتون كى يسير بمفرده بعيدا فى جنيات المعبد .

لقد شحب وجهه ، واحتدت نحافته . وأخشى أن تخونه
قواه وتهجره وأن تكلفنى الملكة بالسهر على راحته .

أما بالنسبة لى ، فأنا - فى الحقيقة - مغمور فى تيه وحيرة •
عواصف رمليّة تضرب جنباتى وتغرق خدى • وأسئلة
واستفسارات تهاجمنى متدافعة فتضايقنى وتزعجنى • والتساريخ
يجرفنى فى تيار مجراه •

ما هى الحقيقة ؟ كيف نقدم العون للرجال ؟ وهل ينبغى
الإنحاء أمام حقائق الحدث والحقيقة تعصف بالجميع ؟ كل هذا
يعتمل فى ذاكرتى من أجل هذه المفاهيم الجديدة الخطيرة حتى أن
كل حدودى وأعصابى ستنفجر •

لا ان جسدى ينقرض ويقلل من كتابتى بسبب سطوة المرض
وتوالى المصائب • ومع ذلك فقوتى طبيعية • ساقاى القصيرتان
المقوستان والمحشوتان بالعضلات ترسخ فى الأرض بقوة •

بينما أخناتون ••

أخشى - كما تخشى الملكة - أن تعاوده نوبات التشنج من
جديد • فكنت أسير وراءه فى كل مكان قلقا عليه وأتبعه حتى
يدخل المعبد • ورغم بطنى الكبير وفخذى الممتلئتين ، فان شهرتى
قد ذاعت بالمقدرة على الانكماش والتقلص لدرجة أن العين لا تقدر
على رؤيتى •

وكان يكفى « سنب » ان انظر اليه نظرة أو أن أمسح
على جسمه حتى تدرك أنى سأنتقل لفترة بدونه • وكان ساعتها
لا يتطلع الى صحبتى دون أدنى رغبة أو هوى فى ذلك • ورغم هذا
كان مزاحه يهفو الى ذلك وكانت عيناه الصفراوان تنغمران فى
سائل أقل لمعانا ، وكان ومض حدقة عينه يصير باهتا •

كان أخناتون يرفع ذراعيه عند الهيكل الى السماء فى اتجاه

رايات الاله المخيف « بغل » والى الاله الدموى « تسيب » والى
المرغتب « اشتار » . ولكن ما هى قدرة يدي الاله الشمس المفتوحتين؟
ولكنى أستريح من عناء القلق أقول ماذا تفيد هاتان اليدان وعلى
الأقل فى هذا الوقت بالذات ؟

أرى يدي أختاتون تتجف نخو الضياء ، أرى أصابعه تنفرج
وراحة كفه تتسغ ، فهل يا ترى تبحث نظراته عن شيء هناك بعيدا
فى الداخل ؟ لا أدرى ! لابد أنه يحاول أن يتصور مكانا امتنعت
فيه الأحقاد عن الظهور ، مكانا تبددت فيه أهوال الحرب ، وزالت
منه أدران العنف ، مكانا لا يحلم فيه الناس الا بالاجتماع على كلمة
سواء فيها خير الجماعة وصالحها .

هنا فى الهيكل ، يقضى الفرعون وقته . وتكسوه الوحدة .
هنا تخف عنه حدة المعاناة . أما أنا فعلى النقيض فى حاجة الى
وجود الآخرين بجوارى .

وأنام هادئا فى اتجاه جدار قصير من الحجر ، أنام ورأسى
مدلاة على صندرى . ثم لا ألبث أن أصحو فجأة من غفوتى .
وأختاتون مازال هناك وعلى الدوام فى نفس المكان ، ساكنا فى
جلسته التى لا تتغير فيتجلى مستغرقا فى العبادة . ولهذا أخشى
أن يجد الملاذ هنا فى هذا المكان . فيصبح مقره المفضل على
الدوام .

ولدت « سيتب » آخر بناتنا بعد وفاة « ميكيه » بعام واحد
ولم تتطلع الى هذا الانجاب فى الحقيقة حيث كانت تسيطر عليها
حتمية تكريس كل القوى لمواجهة هذا التمرد وهذه الخصومة
وكانت البراهين تثوى علينا من جميع النواحي لتدلنا على ما حدث .

لقد ثار جسمى كله على هذه الوليدة التى كانت تكبر فى

أحشائي . لأنها كانت تسلبني جزءا من كياني الذي كنت أريد.
أن أكرسه كله لأخناتون . أخناتون الذي كان يعيش في قلق
وصيق غامرين من جراء الأخطار التي كانت تتهدده .

لم أكن راغبة فيها بل كنت راغبة عنها . وكنت أتصور
ان الزمان الذي في امكاننا ان نتخيره لانجساب الأطفال مازال
بعيدا . ولكنني مع ذلك كنت أرغب في ان أظل متماسكة متقبلة-
لقدومها .

وحين وضعتها ، تقبلها قلبي على الفور ، وتعلقت بها كما
تعلقت بالأخريات وبنفس الاحساس . والآن وقد تفرقت بناتي
وابتعدن عني ، ففي اعتقادي أن « سيتب » الصغيرة سوف تكون
وستظل أكثرهن وعيا بقدرى وقدر المدينة .

ولا يستطيع أحد أن يفرج عن أخناتون همومه . فهو
لا يعنى بأى شيء مما يدور حوله . لا معنى لأية ابتسامة
أو حركة . لا معنى للعب بنات أممه ولا الصغير « سمنخرع » .
وحتى صرخات الصغيرة « سيتب » ، وكلمات الطفل « نيفير » .
كل هذا لا يمس ولا يحول تفكيره .

وهو لا يشكو ما به من هموم ، لكنه غارق في شجن صامت.
لا أقدر على اخراجه منه . ويطلب منى ان أتركه لنفسه ثم يتجه في
خطى بطيئة الى معبده .

فأقول : يا بوباستوس ، اصطحبه دون أن يراك كي تبسده.
مخاوفي .

كان الانفراج الوحيد الذي ارتبط بنا في بداية هذه الفترة
المظلمة ، هو رؤية وفاة مربيتي « سيكي » فقد كان موتها ورؤيتها
تموت بمثابة هبة مفاجئة من جانبها .

لم تكن قد رأينا من قبل وفاة مثل وفاتها ! كانت « سبيكى »
تتغنى وهى جالسة تستقبل الموت • وكانت تقول مبتسمة : « قد
أستطيع الدفاع عن نفسى ضد تماسيح العالم الآخر وأشباحه » :
وقالت كذلك : سوف أقرأ قائمة طويلة من الأعمال السيئة التى
لم أقم بارتكابها ! أما تلك التى أستشعر الذنب بارتكابها فلن أضرب
أذن الآلهة بسببها • وهذا ما أضعه فى الاعتبار الأول • وأضافت
تقول : انها سوف تعود كثيرا لتعيش بيننا كى تأكل وتشرب
وتستنشق نسيم الحياة •

وعادت تستأنف الغناء لتتركنا فى النهاية متألقة كما لو كانت
تتأهب للخروج فى وضوح النهار •

قرأت بعض الخطابات الواردة إلينا من بعض الأقاليم • وعلمت
بالغزو الذى قام به « عزيزو » • وكنت على علم بتوصيات « ريبادى »
و « تجورو » •

ومثلما اعتقد أخناتون ، أحسب أن العودة الى الحرب عودة الى
الماضى الذى نحب ان نردعه ونهزمه • وعلى الذين يعترضون على هذا
الرأى أن يعلنوا آراءهم • فليأتوا الى مدينة الأفق • أن للجميع
مكاثا هنا فى المدينة •

ان أغلب الناس يتطلعون الى هذا العصر الجديد • ونحن
مقتنعون بذلك تماما وان التخلي عن العنف سوف يكون خيانة لهؤلاء
الناس •

كنا نتناقش لساعات طويلة • وكان أخناتون يرفع يديه الى
جبينه فجأة كما لو كان يخشى ان يذهب عقله : فأقول له سوف
تخلد هذه المدينة •

انه يتعلق بذراعى • وانى أرتعد وترتعد فرائصى لمجرد أن يمر

- بخاطري أن أحييا وحيدة بدونه • ان ناره وحرارته توقظني •
- ويقيني هو يقينه • استند على صدره وأقول : ان دمك يعيش •
- لا تقلق ولا تنزعج ••• ويهز رأسه قائلا : ليتك كان على ان ابتعد •

فأقول : من يستطيع ان يجبرك على الابتعاد ؟

– ومهما أعمل ينبغي أن تبقى أنت يا نفرتيتي •

– لسوف أبقى •

– أجيئه دون ان أفهم معنى كلامي أو كلامه •

– سوف أبقى •

• وبعد هذا بدا عليه الهدوء •

النجدة • النجدة • يا كل قوى الأرض والشمس • النجدة
يا أعماق النساء ، يا كل ما فيهن من حرارة وشجاعة • أتوجه اليك
يا كل طاقات الأرض بالنداء ، يا أيتها الرغبات والأهواء ، يا أيتها
الأصول والمبادئ • أتوسل الى كل الروابط والعلاقات الغامضة
ذات الهواء الباعث للحياة والماء الذي يرعى هذه الحياة • أتضرع الى
روابط دقيقة غير مدركة ولا محسوسة تربطنا بأولئك الذين عاشوا
في الماضي سيأتون ويحيون على مثل ما لدينا من الأمل • أناشد
وأتوسل الى كل ما يعين على الحياة في هذه الدنيا •••

– وهل ستكون هنا مهما أقوم به من الأعمال ؟ •

– سأكون هناك • •

وذات صباح أعلن المدير « توتو » الى الأمراء الملوك أن رسولا
من قبل « حور محب » يطلب مقابلتهم •

ومنذ أن رجل « حور محب » عن المدينة وهو غير مستريح .
لم يكن يرسل المكاتيب الا نادرا . وحين ترقى الى رتبة الجنرال ،
ظل يحكم بيد من حديد أحد أقطار الشرق . كان يفتش ويتأكد
باستمرار من سلامة دفاعاته التي تحمي بلادنا الشاسعة .

وقد أبحر هذا الرسول مع ثلاثة من السجناء الذين اتهموا
بالتآمر على الدولة . وكان قد سلم هؤلاء الى يد الفرعون ليتخذ فيهم
أمرا !

كان يوما من أيام الشتاء . وكان الخدام قد أشعلوا اللهب فوق
القارب . تلك النار التي كانت تستعر في المكان الواسع .

— وكان هناك طابور من الرجال في حالة عرى شبه كامل
يرتجفون من البرد القارس . كانوا يسيرون الواحد مربوط بالآخر
وأيديهم الموثوقة بالحبال مشدودة الى الظهر .

وعرفت رجل الشرطة « ما هو » وهو يمسك بعصا يضربهم
بها ويتوعدهم . وكان « ما هو » قد ازدادت قسوته عندما ضاغت
منه الأوزة . وصار وجهه الحليم السمع وجه ظالم صغير يغمره الهناء
بما يفعل . وقد أثار هذا التحول في مظهر وجهه اضطرابا وقلقا
شديدين . وسوف أعبر عن مشاعري هذه لـ « ماهو » وذلك مهما
كان الشمن .

أمر أجناتون بفك أسر السجناء في الحين . وعلى الفور توجه
رسول « حور محب » والمدير « توتو » وآخرون كذلك ، توجهوا الى
الكاهن الكبير « ميرينيه » يطلبون منه المساندة حيال تصرف الملك
الذي لم يرق لهم ، لكن الكاهن ظل صامتا .

وقد طلب الفرعون من الوزير « رعمس » — الذي كان من
« ميام » أن يقيم العدل — طلب منه أن يتحقق من صديق هذه الأحداث .

وأن يسأل هؤلاء الرجال عما بدر من تصرفاتهم ، وطلب منه كذلك أن يتحرى أسباب هذه التصرفات قبل أن ينتهي الى ادانتهم . أو تبرئتهم .

وهنا صاح الناس ووقع ما يدل على نفاد صبرهم . وقالوا :

– انه تدمر من البعض ! وجه اليهم تهمة التدمر !

– انهم فى كل مكان يقومون باعدام مثل هؤلاء !

وهنا يواجه أختاتون الناس بقوله :

لو كان الظلم فى كل مكان ، فإن العدل هنا فى هذه المدينة .
مدينة الأفق . وكانت هذه آخر الكلمات التى قالها أمام الناس .
وكنت شاهدا على هذا وأقوم الآن بتسجيله .

كما أضيف ان صوته كان جادا وأن تمثاله المرتفع العالى كان يحكمنا جميعا ويأسرنا أيضا . كما انى ما زلت أذكر نظرتة التى ألقاها على الرجال . كانت نظرة تطلب من الاخوة العون .

وربما كان يعتقد – هو كذلك – أنه كان متذمرا . متذمرا لأن مولده وصفته كحاكم فى منأى عن الضرر .

وحتى هذا اليوم على الأقل . . .

وحتى المقربون بدأوا رويدا رويدا يعيبون مدينة الأفق فها هى « ميريه » أكبر بناتنا سنا تتهمنا بتشديد عالم وهمى ، عالم للضعفاء والعميان . وكانت تعيب علينا أننا لم نحفظ لأنفسنا بمكانتها . وذكرتنا بالملكة « تى » ما زالت زيارتها مجفورة فى ذاكرتها منذ كانت طفلة . تقول ان هذه الزيارة كانت تجعل منها انسانة عالية الرأس مرفوعة الهامة .

وكانت تتحدث بلهجة متكبرة متعاطمة • وأذكر انها حينما كانت صغيرة ، كانت تلقى بأوامر صارمة حتى مع العجوز « سيكى » • وكان اخناتون ينزعج بنفسه من تصرفاتها •

وكان « سمنخرع » الذى يكبرها بعامين خاضعا لسحرها • وكانت تحدثه عن طيبة باستمرار فتفرض عليه تذكرها لتظل عالقة بذهنه • وكانت تطلب منه ان يرسم لها العاصمة العظيمة •

وكانت « ميريه » تثنى على « سمنخرع » لبقائه بجانبها فى « مدينة الأفق » لكنها كانت تقول له أنها ببقاءها فى المدينة يجعلها تغار من « نبخرع » الذى غادرها الى طيبة منذ أكثر من أربعة أعوام مع الملكة « تى » والمعلم « آييه » •

فقد كانت العاصمة المصرية الحقيقة هناك فى طيبة حسب رأى « ميريه » • ولم تكن مدينة الأفق يوما أمام ناظريها مشروعا متكاملا وصل فى كماله الى ما وصلت اليه مدينة طيبة من الكمال ! طيبة الثابتة التى لا تهتز والتى تدعمها شهرتها المجيدة ذات الجذور العميقة الممتدة الى أعماق التاريخ !

ولم أكن أقيم وزنا لكلام « ميريه » اذ لم أكن أجد فيها الا نزوات مراهرة • وكنت أعرف من جانب آخر ارتباط « سمنخرع » بأخناتون وحبه له •

فمنذ وصوله ، قام باعتناق أفكاره وآماله بنفس حماس الشباب واندفاعه حيال كل ما هو جديد •

واستمر الرسل فى التوافد الى مدينة الأفق • وكانت العيون سقيمة منهكة ، تملؤها نظرات الغزوات المفزعة والانهازم ولم تتحمل شواطئنا البراقة البيضاء التى كانت تأتى القسوارب الطويلة لترسو بها • تلك الشواطئ التى تحيط بها منازلنا ذات الألوان

الزاهية والتي تعلوها مخازن الغلال . وكانت رؤية شعبها المسالم الهادئ يتجول فى الشوارع الظليلة تشير هؤلاء القادمين . كانت صيحات الألم والرنين المخيف فى آذانهم تجعلهم لما يسمعون من الأغاني التي كانت ترتفع الى السماء فى معابدنا وحدائقنا .

وفور الوصول وبعد الراحة من عناء الطريق ، لا يلبث هؤلاء الرسل ان يطلبوا الدخول الى الفرعون ليقصوا عليه سير الأحداث وما آلت اليه الأحوال .

وما هم يحكون له كيف أن الغزاة يزدادون ضراوة ، وأنهم لا يتركون اقليما الا ويستولون عليه . وان الأعداء يتغلغلون باضطراد فى البلاد . وان الهجمات تزداد من جهة الشرق والغرب ، وأنه لم يبق هادئا من البلاد الا أقصى الجنوب منها .

وكانت الأيام تمر دون أن يتمكن هؤلاء الرجال من اللقاء به . وكان الموظفون المتحمسون لهذه الأخبار يلمحون الى الأمراء والحكام ويعقدون الأمور ويختلقون الصعاب أمام لقاء هؤلاء الرسل بالفرعون .

وكان هؤلاء الرسل يستعينون بالصبر لبعض الوقت ثم يتركون رسائلهم بعد ذلك فى أيدي أولئك الذين كانوا يصدقون العزم على توصيلها الى الملك . ثم يرحلون وقد تملكهم الغيظ .

وكانت الفوضى والضوضاء قد سرت . وانتشرت الشائعات فى المملكة بأن السلطة قد أفلتت من يد الملك وأنه لا أحد يحكم البلاد . كما أعلن البعض ان سيد مصر القادم تابع هناك فى الخفاء ينتظر اللحظة الملائمة ليستولى على الحكم .

وقد ربط كبار السن بين هذه الفترة وسنوات حكم « حتشبسوت » الأخيرة . وكانوا يؤكدون ان معاهدات السلام العديدة وكذلك فترة الهدنة الطويلة التى فرضتها « حتشبسوت »

هى التى عملت على تفكك الامبراطورية • وهما هو «تحتمس الثالث»
الذى استولى على الحكم بعدها والذى كانت قبل ابعده طوال
حكمها - ها هو يدخل التاريخ من ابواب العظماء ويصير أشهر
الغزاة الذين عرفتهم الأرض • وبفضل حملاته الشجاعة ، أقام النظام
وقضى على المؤامرات وعمل على أن يحترم الجميع النظام الملكى وأعاد
الى مصر أراضيها الواسعة •

ولما لم يستطع القائد « بخورو » أن يقنع الملك بالدخول فى
حرب مع المتمردين ، هرع هذا القائد الى اقليمه الذى تتهدده
الأخطار من أجل الدفاع عنه • وعلمنا بعد ذلك بوقت قصير أنه
قتل •

وكذلك فعل « ريبادى » مثلما فعل « بخورو » فقد قاد
فصيلته واتجه الى مقاطعته - وأخذ يحارب حتى وصل الى احدى
نقط الحدود ولكنه لم يتحمل سقوط المدينة ومات •

وكانت هذه الأخبار ترد الى مسامع « اخناتون » فكان يشعر
بالأسى ويتهم نفسه بأنه وراء افتقاد أصحابه •

وكثرت الصيحات والصرخات • وتوالى حوادث الاستسلام •
وتفشيت حوادث الانسحاب • وكان البعض يرسل الرسائل الى
« عزيزو » يطلب منه النجدة والتحالف معه • وصار « عزيزو »
يوالى انتصاراته يوما بعد يوم • وكان آخرون يرسلون الى الملكة
« تى » يعلنون الخضوع لأوامرها كسيدة أولى لطيبة • كما أرسلوا الى
المعلم « آييه » ذلك الذى صار له نفوذ وسطوة على الملكة • فكان
له التأثير على الشئون العامة •

وأقسمت لى عاملة المجداف « نوبا » ذات القلب الكبير الذى
لا يقوى أمام العناد - أقسمت أنها سوف تقف بجانب الأبرار
الشبان لما يتهددهم من المخاطر وبذلك رغم مكانتها الغامضة • وكانت

تتعهد « سنب » وترعاه اذ لم يعد هذا يلقي منى الرعاية الكافية .
فأخذت تنظفه وتغذيه دون أن تطلب منى شيئا بمقابل ذلك عنه
عودتى .

وقد سادت الفوضى وعمت عند مشارف الحدود . لمن يظل
الناس أوفياء ؟ للفرعون المنهزم ؟ أم للغزاة الجدد ؟ وكيف تتسنى
للناس أن تدافع عن أنفسهم دون أن تمتلك العدة والقوة ؟ وأين
سيادة القانون ؟ وأين الحيانة ؟

وتزوج كثير من الزعماء المتدمرين كثيرا من المصريات .
وكانوا أحيانا ما ينقسمون على أنفسهم عند التنافس على الزوجات .
وأحيانا أخرى كانت هذه النسوة تستحث أزواجهن على استغلال
ضعف السلطات والانقضاض على الملكية .

وقد أفضى إلى أحد الناس بالقصة المفجعة التي حدثت
لـ « نسيا » . فقد أوعزت هذه إلى زوجها أن يشور على الفرعون
والامبراطورية . وقام أخوها الشقيق على رأس فصيلة من الجنود
بالتنمر على أوامر اخناتون الداعية إلى الهدوء والسكينة وحاصر
المدينة .

وتسلقت « نسيا » الأسوار تستحث الشعب على القتال
وتناشد المهاجمين التراجع . وقد غطت صيحاتها ونداءاتها على
ضجيج المعركة حتى اللحظة التي فيها تلقت الملكة الشابا سهما
قاتلا في صدرها . وقد رماها به أخوها قائد الجنود .

وعلى الفور يرتمى جسدها الجميل على الجدار وينزف ما فيه
من الدماء بينما صارت المدينة مثل ملك أعزل من السلاح والعتاد .

وكانت الملكة « نسي » تهنى نفسها على اصطحابها « نبخرع »
إلى طيبة . وكنت في العاصمة القديمة أتلقي المساعدة على الدوام .

وكان مبلغ علمي أنها كانت ترى في هذا الأمير الشاب الوريث القادم للفراعنة رغم انه يصغر أخاة « سمنخرع » .

وكانت الملكة « تي » قد أقبلت عن اسداء النصائح الى اخناتون منذ وقت طويل ، وعن ارسال المكاتيب اليه في المدينة .
وكان يشحب ونجها وفي الوقت نفسه تزداد صلابه وكانت تتحرك في مشية تملؤها الحيوية رافضة الاستسلام لوهن الشيخوخة .

وكانت تتقبل اطراءات الكهنة ومديحهم حسب نصائح المعلم « آييه » مما جعل هؤلاء يستشعرون بالسلطان والعظمة مع مرور الأيام .

كم كنت أود أن أسمع كلامك الحكيم يا والدي « أسيو » !
خصوصا وأنت في هذه الأوقات العصيبة المليئة بالاضطرابات .
كنت تخبرو منطفئا ببطىء هناك بنفس الصفاء ، ونفس الاعتدال : وفي وسط زروعك وفي منزلك الريفى . ومع ذلك يرتفع صوتك عاليا في أعماقى . أسمعك تقول :

« انه قادم قبل زمانه ، هذا الأبله الحكيم اخناتون . ذلك الذى تحبه يا ولدى . ان عقله زاخر بالفكر . وقلبه الذى لا يعرف المكر والحقد ضعيف أمام فساد هذا العالم . سر فى طريقك يا بوباستوس ، سر كما أنت ، طالما رأيت فى ذلك الفلاح . . . » .

كم من الأسئلة كنت سأوجهها اليك أيها الوالد ؟ وماذا يعنى القاء السلام والاستسلام أمام الحقد والكراهية ؟ وهل تتمثل القوة فى الفن والفلسفة والحب ؟ أم ان الفلسفة مجرد هروب وملاذ ؟ ومن يا ترى على صواب ؟ الشعاع أم المحارب ؟ الوديع أم المهاجم الغسازى ؟

وهل الحسام مبعث للشجاعة ؟ أم أن الشجاعة تنبع من عدم اللجوء اليه ؟ وهل من الواجب التغنى بالضحايا أم أن تخليته المنتصرين هو الصواب والواجب ؟ ألا تحب أن تكون اللغة واحدة في جميع الأرجاء • مصرى كان الواحد أم بابلي أم نوبى ؟ أى شيء أعرفه كذلك ! •

ألديك الإجابة على هذه الأسئلة يا أمينو ؟
وهل يوجد فى الأصل اجابات هناك على هذه الأسئلة ؟
أحيانا أحسب أنى واقف ثابت • وأحيانا أجرى لا أرى إلا هذه الأرض الممزقة • وهذه الأرض التى أسير فى أرجائها فأراها أطلالا ورمادا ، أسير فيها فى صحبة نفرثيتى ورأسى تطير كالبرق •
لقد عبر « أمينو » من الحياة الى الموت متوجها الى النيل وفى وادى هذا النيل الذى لا مثيل له •

ومنزله المبنى من الطين الضئيل الذى يرتفع على مدخل يغطيه البوص وأوراق أشجار الموز التى تخفف قيظ الحرارة فى الصيف •

وانى على يقين أن « أمينو » جالس هناك ، ونظره متجه الى ذلك السهل الأفقى الأخضر ، الى هذا النهر الذى ينبسب نحو نهايته الهادئة •

وما زلت أبعد عن ذاكرتى طيف أيام اخناتون الأخيرة ومع ذلك ، يحدث أن أنادىها كى تجئ • يا بوباستوس • لقد كان هناك فى تلك الأيام على الأقل • وكنت أستطيع الحديث معه الاحساس بوجوده •

ولم يتمكن أى تخيل أو أى حلم أن يعوض رؤية جبينه أو

ملاسة جيبيته و خضيلة من شعره و عينييه أو حتى بشرته . . .
هذا التواجد الكامل لهيئته . وليست هناك فكرة أكثر حياة
وحيوية وتأثيرا من دفء البنظن : حرارة الأنفاس ودفء الكلمات
ولهيبها على شفاة حية .

فمنذ مدة لم نعد نلتقى راقدين ، ولكنى أرقب تحركاته طوال
الليل ، يتخلله عالمنا الممزق ، يقصه ويقطعه .

وأحيانا يستيقظ أخناتون والعرق يغطيه ، ثم تأتي نسمة
هواء تستولي على جسده ، فيرتعش ، فتسير عليه موجات دقيقة من
العرق في اتجاه هذا الهواء .

ويطلب منى أن أأدفعه فاتحا فمه ، فأستحث أنفاسي الدافئة
فوق صدره وكتفيه وسنقيه .

وأقوم بتدليك جسده عضوا عضوا .

وفى ضوء شعلة مضيئة ، أرى ثنايا شفتيه تتحرك ، ويرسم
ابتسامة ، فأقبل راحتيه ويقبل هو راحتي .

وتوحي كل حركة منه بنوع من الضياء . ونستعيد الثقة
ونراجع الكلمات . ونصعد سويا وحتى طلوع الفجر . أقول له :
سوف تخلصنا ويجب قائلا : لا تهجرى مدينتنا .

كان اخناتون يسير فى الحجرة ليقتل الساعات تحت أقدامه
فى الذهاب والعودة . وكنت أحاول السير بجواره فى تلك الليالى
وحيثما كنت أقرب منه كان يلتفت الى فجأة بطريقة توحي بأنه
لا يريد معرفتى . ويمسك الشعلة المثبتة أسفل الجدار ليطفىء
لهيبها .

وهكذا كان يسد كل الطرق كيلا أتجسس اليه أو نحوه .
فكنت أعود مرة ثانية لأجلس على الأرض وأتركه فى ظلماته
وسكونه . وكان ضوء القمر خافتا حين يمر بردائه الأسود ، فكنا
نبدو وسط الضوء الخافت .

وكانت وجنات أخناتون تزدد بروزا ويبدو خده أكثر غورا
وعمقا . ثم يصير رأسه ثقيلًا ويميل الى الأمام .

وكننت فى تلك الليلة أحس بالعجز أمام ما كنت أود أن أقدمه
اليه من المساعدة . كنت عاجزة عن مواساته والتفريج عنه . فلم
أكن ذات قيمة بالنسبة له .

وقد قام بعض كبار القوم بإعلان خبر وفاة الملكة « تى »
بصراحة قاسية وبلا تحفظ أو مقدمات . مما هز « اخناتون » من
الأعماق لدرجة أنه ما كان يستطيع التخلص من تأثير هذا الخبر
المفزع . لذا أخذ يلوم نفسه لأنه رأى فى نفسه السبب فى التعجيل
بنهايتها . وأخذ يتلمس لنفسه الصبر والسلوان لعدم استطاعته
السير فى حركته الإصلاحية الى آخر المدى .

وقد وعدته بأن المدينة سوف تخلد مهما عملت من جانبى .

كنت أغرض عليه أن يعين « سمنخرع » مساعدا له . وكان
هذا قد اقترن بالأميرة « ميرييه » . ولأننى كنت أثق فى آرائه
وأفكاره ، فقد كنت مقتنعة تماما بأنه سوف يقنع زوجته ويؤثر على
تفكيرها لتدرك الخطر القائم مما يجعلها تساعدنا فى النهاية وتدعم
جهودنا التى نبذلها لدرء هذا الخطر .

وتتدهور صحة اخناتون . وتنشر الخبر عاملة المجداف .
وتتعرض المدينة لكل أنواع العنف . وها هى رهن لزحمة الأعداء
الجبابرة .

وفى اعتقادی أن وجود الزوجين الصغیرین « سمنخرع ومیریہ » لن يشجع على اقتحام المدينة بل سينشر الاطمئنان والثقة بين ربوعها . ويتراءى لی الآن أنه قد حان الوقت لتنصيب « سمنخرع » وليا على عرش مصر ، ذلك المخلص لأفكار اخناتون والمخلص الحمیم له .

توفيت الملكة « تی » بينما كانت ترفل فی حیویة عارمة مثلما كانت تبدو فی حیاتها . وقد حکى لی الکاتب الشاب « سیتو » الذى كان مکلفا بمتابعة أخبار اخناتون ، حکى أن الملكة « تی » كانت تجوب حجرات منزلها الفسیحة بخطى واسعة نابضة بالحياة . وانها أمرت رجال البلاط ونساءه بأن يغادروا سكنهم فی الليلة التى سبقت موتها . ولم يرق لها الا الابقاء على « آیه » لیکون قریبا منها . وهو وبعض الخدم والکاتب « سیتو » والفتى « نبخرع » - طبعاً - ذلك الذى كان فی الخامسة عشرة من عمره .

كانت تسیر نشیطة فی الصالات الخالية وهى تصطحب الأمير الشاب وراءها مؤكدة علیه بالنصائح والمواعظ .

أخبرته بأنه سوف یحكم کل مصر فی القریب ، لأن أخاه الأكبر « سمنخرع » لن یستمر فی ذلك طویلاً حسب کلماتها له . وبعد فترة من الزمان وعلى ضوء مسيرة الأحداث ، كنت أسائل نفسى عن مدى مسئولیتها فی حادث اختفاء ولی العرش . وكان یراودنى الشك بأنها ربما تكون قد دبرت له مؤامرة من أجل إخفائه .

أما « اخناتون » فقد أكد « سیتو » انه ما من مرة غفلت فیها الملكة « تی » عنه وعن الحديث عنه . ومع ذلك - وحسب أقوال سیتو - كان المرء يشعر بضمتها المفاجئ المتكرر قبل ان تقول

عنه كلاما قاسيا وذلك بأنها كلما تذكر ولدها « اخناتون » تنتابها
الثورة ويصيبها الدوار . .

كانت تسير وتسير كالبرق أمام كاتبها لتمر بطول صف
حجراتها . وفى أوقات أخرى ، كانت تدور فى حركة دائرية ثم
تغير اتجاهها فى جولات أقل طولا .

كانت تبدو كما لو كان يحيط بها رهط من كلاب الصيد
وأنها تحاول أن تغلب من هذا الحصار بحركات مفاجئة غير متوقعة .
وكانت ملامح وجهها توحى بجلاء بأن الملكة تختفى وراء قناع وان
حقيقتها تخالف مظهرها .

لسوف تكون أنت يا نبخرع : الحياة - الصحة - القوة .
ذلك النمط من الحكم الذى أهمل منذ أمد بعيد . وسوف تتحول
مصر كلها عن هذا الأسلوب فى الحياة .

وكان المراهق « نبخرع » يسير وراءها مفتونا بما تقوله الأم .
وأوصته بأن يسرع فى العودة الى مدينة الأفق فور تنصيبه وأن
يظل بين العاصمتين طوال حكمه حتى يعمل على توحيد الامبراطورية
كلها . وان يستقر بعد ذلك فى العاصمة « طيبة » .

وسوف يكون عليك أن تعيد للأسرى حريتهم ، قالت ذلك
وهى توجه كلماتها الى « آيه » الذى ما لبث أن أبدى موافقته
بايماءة من رأسه .

ومرة أخرى تختنق الملكة .

وفى حركات محمومة كانت تجذب ملابسها . قامت تقفز
نحو إحدى الفتحات . وانحنى الى الامام ثم استنشقت ملىء رئتيها
من الهواء طويلا ثم عادت بعد ذلك وأبطأت فى التقاط الأنفاس .

كانت تلك الفترة الثقيلة على النفس . كانت تحاول التعجيل
بالنهاية . وما هي تعاود الكلام الى ولدها نبخرع وهي تجر أقدامها
مبكثة عليه :

عليك يا ولدى أن تسلك مسلكا يجعل منك الرجل العظيم .
أقم المعابد للآلهة التي هجروها . مر بتشبيد مقابر أبدية خالدة
وأملأ هذه المقابر بالذهب والفضة والأحجار الكريمة والقماش
والأثاث . بهذا يتسنى لك أن تخلد عبر القرون . فالشروات أطول
بقاء وعمرا من القلب .

ثم توقفت وقد أثر في أعماقها ما قالت من الكلمات . توقفت
أسفة وهي تقول : لا يبقى شيء في الأيدي ذات الأصابع المنفرجة .
كل شيء ينزل من بين تلك الأصابع ؛ لقد أفلت منهم الوجود .
وربما يهجرهم الخلود !

وتقطعت أنفاسها وأنزلت القناع الذي فوق رقبتها وفكت
بسرعة ياقتها ذات الصفوف المتعددة وتركتها تسقط عند قدميها ثم
خلعت التاج بسرعة وألقته فتدحرج بعيدا عنها على الأرض . كانت
تلثث الى درجة الضيق .

وحينئذ أصابتها ضربة عنيفة في صدرها . وأمام هذه الضربة
ظلت واقفة متماسكة ، تنتظر الضربة التالية القاضية ، فتأتى هذه
لتصيبها في صدرها وتقتلها كالصاعقة .

وتطلق صيحة مدوية ثم تنهار .

وتأمر « آييه » بأن يفتح كل الأبواب الكبيرة . ويتجمع كبار
القوم في المدخل ويدخلون في الصلاة التي كانت فيها الملكة
العجوز : وكان الجنرال « حور محب » الذي كان قد استقر في
« طيبة » منذ أيام طويلة ، في صحبة القادمين .

وقام البعض بتقويم الجثة ثم وضعوها ممددة على أحد جنبها .
وقاموا بالباسها الحلى المتناثرة فى كل مكان على الأرض .

وكان الأمير الذى شهد الموت بعينه متماسكا ثابتا من جمهور
البلاط . وبعد لحظة توجه اليه « آيه » وجذبه من وسط
الجمهرة . فتوجهت اليه الأنظار . ويراجع الجميع ليفسحوا له
الطريق وهم ينحنون اجلالا وتعظيما .

وهو واقف ثابت على منصة ، يكاد يذرف الدمع .
متوسط الطول ، قوى البنية ، ذو ملامح دقيقة ، وملامح وجهه
يبدو عليها الاتزان : الأنف حاد والفم ممتلئ والعينان سوداوان
يمتد اتساعهما الى الصدغين :

ولم يترفع أى صوت . وكانت الحاديات مشغولات حول الجثة .

وكان الأمير « سمنخرع » متحيرا بين ولائه للملك وبين ضغوط
زوجته « ميره » وايعازاتها بالاستيلاء على السلطة فظل منتظرا لما
تلميه عليه مسيرة الأحداث . ومنذ وفاة الملكة « تى » كانت زوجته
تستحثه على العودة الى طيبة ليعرفه الجميع وخصوصا أخوه الأصغر
« نبخرع » .

وكان عقل « أخناتون » يصير مظلما أثناء الليل . كان مثل
النيل فى زمن الفيضان ، يتقلب أحيانا على أحد شاطئيه ، وأحيانا
أخرى على الشاطئ الآخر . فكان هذا يتنقل من قرار الى قرار
آخر معارضا له دون سبب واضح لذلك .

وذات مساء ، أمر الفرعون زوجته نقرتيتى بالرحيل والبقاء
فى القصر الشمالى . وكان ذلك فى حضرة ولى العهد وآخرين بينما
يجلس الجميع على منطخ القصر . كان عليها ان تجلس هناك أسفل
الصخور فى الطرف القصى من المدينة .

وكننت فى تلك الأمسية مذعورا لما سمعته • وقد أشارت الى تفرتيتى حتى لا أظهر شيئا من ذلك • واقتربت من الملك تحاول الحديث اليه ، لكنه أدار اليها ظهره وابتعد تاركا اياها وحيدة وسط الحاضرين •

وفى الحال ، ظهر جواسيس « حورمحب » فى مدينة الأفق وكان هذا القائد قد بدأ يعد الجيوش ، وبدأ يظهر مقدرته الفائقة على الدبلوماسية التى أهلته الى أن يعين نائب ولى العهد فى جنوب البلاد وكان ذلك الجزء تابعا لطيبة فى الحكم •

وكان قد سبق قدوم هؤلاء الرسل والعيون ، قدوم بعض ممثلى الكاهن العظيم • ولم يتأخروا عن توقيع اتفاق مع الكاهن العظيم « ميرينيه » • فقد وعد هؤلاء بأن يخصصوا بعض المعابد فى « طيبة » للاله « آتون » مقابل أن تظل عبادة « آمون » قائمة مع عبادة الآلهة القديمة فى مدينة الأفق •

كما حصلوا على وعد بأن يزورهم « سمنخرع » وزوجته وبصحبتهما « أنخيس » البنت الثالثة للفرعون لكى تتزوج « نبخرع » حتى تقوى الأواصر داخل العائلة الملكية المفككة التى هزت هذه التغييرات من كيانها •

وفى هذا الوقت بالذات ، عاد الى مدينة الأفق فى عجلة ، « موسى » الذى كان يعمل على نشر عبادة التوحيد فى أقاليم قاصية حينما علم بالقلقل التى كانت تؤرق الملك أخناتون •

وقد رتب له لقاء مع الملك • وكان من فى القصر يرون أن الملك صار مسالما • « وأن المرء ما عليه الا أن يفتح فمه بالكلمات ليحييه فى النهاية حتى يهدأ هو فى النهاية » وان « رؤيا تأثيرات الهرطقة المشتومة ربما تهدىء من هياج المتذمرين » •

وحيثما رأى موسى أخناتون قادما نحوه من آخر الصالة
الواسعة ، تأثر لمظهره . وجرى نحوه مندفعاً واحتضنه بذراعيه في
حركة غير عادية ذلك الجسم المتحجر ، وذلك العقل الشارد وهو
يقول :

— لقد علمتنا الكثير . . .

وقد شعر أن في هذا الجسم المهجور ما يشبه الشرارة الخاطفة .
وفي الحال اقترب الحراس من موسى يرجونه أن يتركه ويبتعد .

وحيثما علم موسى بأقصاء الملكة نفرتيتي في تخوم المدينة ،
خرج في طلبها . وكانت كل الطرق المؤدية إلى مكانها مغلقة . فقد
كانت الحامية من الجند تمنع الاقتراب منها .

ولم يستطع أحد في ذلك الوقت العصيب — أيها الوالد
« أمينو » — أن يتنقل من مكان إلى آخر دون أن يتم القبض عليه .
أيها الوالد « أمينو » يا من لم أكف عن مديح بذرتة التي جعلت
منى قزماً .

وهنا يهجر موسى « مدينة الأفق » . وهكذا ينتهي عصر لم
يكن لنا أن نراه من جديد . وبعد ذلك بزمان علمت بخروجه على
رأس جماعة من الناس آمنوا به .

وهل نستستمر « نفرتيتي » في الكلام ! أظن ذلك . سوف
تسعى إلى أن تسود هذه العبادة حتى تموت . أنها سوف تقتل
قلبي الذي أرهقته المعاناة . ذلك القلب الذي أجبج الفراق ناره .

وانى لعلى بينة من أنها سوف تذهب معى حتى بداية هذه
القصة . لكني يخلد أخناتون ومدينته . ولكن متى ؟ انى أحس أنها
غارقة في الآلام ومع ذلك ، أبقى أوراقى جاهزة وتظل ريشتى
منغمسة في المتداد . وأظن ضابراً أملاً في بدء الكتابة .

« كان الوقت ساعة غروب شمس أحد الأيام « يا بوباستوس » .
وكانت النسماء تلهب الأرض . . . وكنت استعيد الثقة فى نفسى « . . .
كانت آخر ليلة . . . وقد غلب النعاس أخناتون فى النهاية .
كان جالسا بجوار « سمنخرع » ولى العهد وعليه أعراض الراحة .
كان الملك ولى العهد قد جلسا على سطح القصر مع كبار
الزواجر المرموقين واثنين أو ثلاثة من كهنة « طيبة » وجمع من
المدعوين .

وكنت ساعتها أقف على منساقفة من هذا الاجتماع تحيطنى
جماعة من النسوة . ، وقد أتت إلينا « ميرييه » حاملة فى ذراعيها
أصغر أخواتها وقد رأيت من بعيد أحد كبار الكهنة وهو يتمتم فى
أذن « سمنخرع » . ويقوم هذا بدوره بنقل الرسالة الى الملك .
وفجأة يقف أخناتون منتصباً بكل قامته ، ويشير الى
بأصبعه ويأمرنى أن أرحل فى الحال . وأن أغلق على القصر الشمالى
وإذا أخرج منه .

كان يقولها بصوت حاد ، متقطع ، ورغم هذا ، لم يتأثر صوته
— وتفرق المدعوون .

وبقى حولنا كبار رجال الدين وبعض من المعارف . وبقي
بينى وبين أخناتون الفراغ الفسيح من البلاط . اتقدم محاولة ان
أملأ هذا الفراغ وأن افهم . اتقدم اليه وكلى امل أن يتعرف هؤلاء
الناس ويختلفون لأجد نفسى لحظة واحدة بمفردى أمامه . لكن
المحيطين به لازلوا هناك .

وحينما صرت على مقربة منه ، رأيت كلام عينييه يناقض قول
شفتيه . كان فى نظرتيه رجاء . ماذا كان يا ترى يريد أن يعرفنى
أيام ؟ وهل كان على أن أقاوم رغبته وأن أرفض طاعته ؟ أم كان

على أن أتقبل هذا الفراق المؤقت من أجل مصلحة مدينتنا
وانقاذها ؟

سوف تهب لتجدني يا بوباسنتوس * ولو حدث أن وقع لك
السوء وحدك - رغم أنني لا أتصور وقوعه حتى هذه اللحظة -
فسوف اعلن عن تحالفنا السري هذا : فأنت الوحيد الذي
سيتمسك بآخر خيط يربط بيني وبين اخناتون .

ان أوامر اخناتون ووعودي له تلاحقني : « مهما عملت فانه
يتحتم عليك البقاء ولا تغادري المدينة مطلقا » .

ان « سمنخرع » وغيره يبدون لي وجها فاترا . وارفع رأسي
نحو اخناتون من أجل كلمة أو إشارة

ويدير ظهره الى فجأة . اراه وكذلك اسمعه . اراه يترك
سطح القصر ولا يبقى لي الا بصدى خطواته . ذلك الصدى الذي
يذهب الى بعيد . ومع ذهابه يخف تأثير صدى هذه الخطوات .

ولا يبقى لي الا أن اسير وراء الحراس ، الا ان اتركه ، وان
أذهب بعيدا عنه ، هناك في القصر الذي أشار الى أن أظل فيه .

ومرت تسعة اعوام . ولم اكن اشك فيما سيحدث في تلك
الليلة . وذلك لأنني متشبثة بخطواته ولم يكن في مقدور أية قوة
أن تقدر على تفريقنا .

لم اكن اشك في تلك الليلة ان ارى اخناتون الذي كان حبي
وزوجي ووالدي واخي والهي وولدي لآخر مرة * .

ومنذ ذلك الوقت ، توالت الأحداث وتوالت
رجل « سمنخرع » و « ميزيه » الى طيبة ومعهما « انخيس »
الذي سوف تتزوج « نبخرع » .

وبعد ذلك بقليل ، يموت ولي العرش ، وادعى البعض أنه سقط من عربته وهي مسرعة . وقال الآخرون ان قطيعا من الحمير الوحشية قد دهمه حينما تاه أثناء رحلة صيد ملكية .

وقام اشراف القوم بإبلاغ اخناتون الخبر واقنعوه بأن ينتقل الى « طيبة » ليشهد جنازة ولي العرش دون ان يصطحب « نفرتيتى » .

وذات صباح ابهر الى « طيبة » ولم يقبل اليها . وحاولت عبثا ان استفسر عن سر عدم وصوله ، وحتى هذه اللحظة يبقى الأمر غامضا وتظل الشفاة ملجمة . . ولم اعرف - وهل سيتمكن الناس من ان يعرفوا ؟ - كيف قدم الموت الى الملك الذى لا مثيل له .

وهل كان الموت عنيفا ؟ هل كان هادئا ؟ وهل قام اخناتون بندائه فلبى نداءه ؟ وهل ناداه حينما لم يستطع أن يسير فى طريق الاصلاح حتى النهاية ؟ ام اخذه الموت غدرا على يد احد أعدائه ؟

وبهما يكن ، فلتصاحب الحياة ذلك الذى تجاوز الزمان وسبقه .

كان اخناتون قد امر بحفر مدافن من اجلنا هنا فى هذا الشاطئ الصخرى الذى يتكىء عليه القصر الشمالى .

وقد اختار هذا المكان الذى تكسوه الشمس الحارة وتغمره رياح الصحراء . وذلك بسبب عزله وخلوه من النباتات . ولما كانت عملية تقوقف على الدوام لأنه كان يرى ضرورة فى الاهتمام بالقوات اللازمة للدفاع عن المدينة . مما ابقى على هذه المقابر من غير اتمام .

لن يسجن اخناتون أية مقبرة. ولا أية هومياء ! لقد انهى مشواره ولحق بالشمس المليئة بالحركة . هذه الشمس التى لا مملكة فى حوزتها والتى لا يصيبها الأفول .

اخناتون الذى كان دائما فى اطار جسمه ، كان دائما فى الزمان ، على الأرض . . ان هذا الاختفاء يشبهه . . وان عقلا فى مثل حرية عقله واتساعه لا يمكن الا أن يتحد مع الهواء والرياح .

وبعد ذلك اعتلى « نبخزع » العرش . ذلك الذى اشتهر باسم « توت عنخ آمون » وكان يرافقه على الدوام الجنرال « حورمحب » والوزير « آييه » . وقد ظهر اسم كل منهما بعد ذلك كثيرا على شحنات البريد الواردة من الملك . .

وكانت عظمة الاحتفالات وأبهة المواكب المفردة توحى فى اعين الناس بأن عبادة « آمون » قد افلت وولت .

ومع ذلك ، فلم تكن هناك أية مشكلة فى الهجرة من « مدينة الأفق » التى كانت تتمتع بالهيبة والمنزلة على الدوام . وقد تعاطفت نفرتيتى التى كانت على قيد الحياة والتى كانوا قد خففوا عنها الحراسة منذ اختفاء اخناتون ، تعاطفت مع البعض من أفراد الشعب. وبفضلها عاشت المدينة فترة من الزمن تتطلع الى بقايا الأمل . ولم يتمكن احد من أن يهمل الاله « آتون » الذى صار له عدد من الأتباع .

وقد استمتع « توت عنخ آمون » وزوجته « أنخيس » الى نصائح كبار الشخصيات فى طيبة . وهرعوا الى مدينة الأرض . . وقد تذكر هذا الفرعون الشاب ان المدينة بهرقة حين زارها مسبقا قبل مع الملكة « تى » . بل وكان ينظر بعين الغيرة والحسد الى

« سمنخرج » لأنه استطاع البقاء فيها . أما « أنخيس » فلم تكن
تشعر بالسعادة لعودتها الى مكان طفولتها .

وقد اسرع العاهل الشاب وزوجته نحال وصولهما الى القصر
العلوى فى المدينة . وأوحى دخولهما القصر الى الملكة « نفرتيتى »
ذكرى دخولهما مع أخناتون . وحسبت ان كل شيء سوف يعود
من جديد وأن النزعة الى الاصلاح الدينى سوف تنبعث فيها الحياة
من جديد .

ولكن ابنتها « انخيس » وزوجها « توت عنخ آتون » لم
يلبثا ان اكتشفا عكس ما كانا يتوقعانه . فقد كانت « مدينة
الأفق » فى حالة لا تعكس ماضيها البراق ومكانتها المرموقة .

وكان كل شيء ذابلا يدمغه الفتور : تلك المعابد المهجورة
تحولت الى اغراض اخرى غير شئون العبادة . وهذه منازل لم يكتب
لها السكنى بعد البناء . وتلك كلاب تجوب المدينة بدون أصحابها .
والمزارع المهجورة تموت فيها الماشية . حتى ان دور العبادة المتهدمة
كانت تقدم الاججاز المنزوعة للمباني الاخرى . كل شيء كان يعطى
انطبعا بأن المدينة صارت مهجورة وكأنها مدينة للأشباح . ورغم
جهود نفرتيتى المتواضعة كانت المدينة تزداد تفككا وانهيارا كل
يوم . ولم يعد لها مثيل .

أيمكن هنا أن اتحدث عن « سنبل » ؟

ذلك الحزن عليه لن يفارقنى على الاطلاق . كنت أعود الى
الملكة دائما خلال الساعات التى كنت فيها أحاول يائسا معسرفة
وصير اخناتون . وكنت أجد دماءها هاربة ، أراها مجنونة لا تعرف
الراحة لحظة . فقدت أيامها ثعبانى « سنبل » وبكى عليه بكاء مرارا .
كنت أخشى ان يكون ضحية للشعالب التى تأوى الى المساكن المهجورة
بالليل .

ورغم أنّ « نوبا » عاملة المجداف ألحّت على كثيراً بأنّ أَسْتَبْدِلَ به حيواناً آخر ، فلم أقدر على ذلك . وها هي تنذر قلبها وقواها لجميع الكلاب الضالة - كلاب البيوت الملكية ومعها الكلاب الأخرى - فتقوم برعايتها وتغذيتها .

وحسب ظنى أدركت أنّ نفرتيتى لا ترى فى « توت عنخ آتون » شبهاً بأية حال من الفرعون السابق « اخناتون » . لم تر فيه روح اخناتون المتوقدة الجموحة المقدامة ولا نظرته الجريئة . لا شىء فى أى من هؤلاء يشبه هذه الشخصية اللينة التى تنحنى أمام الرسميات . فلم تر فيه الشخصية التى خلقت للعبادة وإنما رأت فيه شخصية خلقت لتكون تابعة .

وها هو بدوره يقيم فى عاصمة ثم ينتقل الى الأخرى ليصلح بين المدينتين وبين العقيدتين . وها هو يعيد « آتون » الى الدور الثانوى الذى كان يقوم به قبل أن يقع ما حدث من تغييرات لتدعيم معبده وتقويته فى ضواحي مدينة طيبة .

وفى نفس الوقت يقيم تمثالا ضخماً من أجل « آمون » فى مدينة الأفق وبهذا يترك « توت عنخ آتون » عبادة التوحيد دون أدنى مقاومة ليعود الى عبادة مجمع الأرباب .

وقربينا بعد ذلك ينادى هذا الفرعون بـ « توت عنخ آمون » متخلياً بذلك عن جزء من اسمه . ومنذ ذلك الحين ، لم يكن هناك شك فى تسيد مدينة طيبة وتسيد الآلهة القديمة .

وعلى العكس من ذلك ، يبدت مدينة الأفق مضمحلة على حافة الهاوية رغم اصرار الملكة نفرتيتى وجهودها وجهود اتباعها .

حكم الفرعون الصغير الوديع « توت عنخ آمون » سبعة أعوام وأثناء مراسم جنازته ظهرت معالم الأبهة التى فاقت الأبهة والفخامة

التي دفن بها من سبقوه من الفراعين . فملئت مقبرته بالكنوز الوفيرة .

وفوق موميائه كان يحمل صورة آتون فاتحا يديه . ومع هذه الصورة كانت هناك صورة أخرى . ذلك الآله الذي هجروه . واستمر « آييه » العجوز يدير شئون البلاد على مقربة من « أنخيس » لكن هذه الفترة لم تدم طويلا . وانتهى حكم « وزير التمرين » بسرعة مسرعة .

وكان الجنرال « حور محب » يعد العدة لدخول المدينة منذ زمن طويل .

وفي أيامي الأخيرة ، أجد الصعوبة في اخراج الكلمات من بين شفتي الملكة « نفرتيتي » وغالبا ما وجدت نفسي مضطرا أن أكمل قصتها دون ان انتظر العون منها .

فاحيانا ما يكون غياب اخناتون بالنسبة لها امرا لا يطاق . ان هناك جرحا يستتر فيها . وحينئذ تختفى في مغارات تتمزق فيها الفكرة وتنقطع فيها الذكريات . وساعتها لا يستطيع المرء ان يقدم لها العون أو المشاطرة .

ومع ذلك ، فأنا اعلم أن لها ضعيفا يعيش في داخلها لا يمكن ان يتحكم فيه وأعلم ان هذا اللهب مشتعل على الدوام في اعماق القصر العلوى ، مثل حلم يتعلق بالغد أو حلم دائم الحياة .

وهذا هو « حور محب » ، يتزوج من أخت الملكة « تي » وهي في الثلاثين من عمرها . يتزوجها رغبة منه في ان يرتبط بالأسرة الملكية وذون ان يكون له اى ارتباط بدم « اخناتون » الفاضح الشائن . كما ننوء الى ان زوجة « حور محب » امضت طوال حياتها بعيدة عن البلاط .

وقد توج القائد الأعلى للجيش ، الذى كان يطلق عليه من قبل « عظيم العظماء ، قوى الأقوياء ، توج وسط هتافات الجماهير المتحمسة .

وبدأت السجلات تؤرخ بداية حكمه اثر موت « أمينوفيس الثالث » فقد اعتبر نفسه استمرارا حقيقيا له .

وأيام حكم اخناتون وتحت قيادة « آييه » ، لم ينتهك أى قداس للاله « آتون » . ولم يكن العداء القديم للفرعون القديم قد انطلق له العنان بعد .

ولكن الحكيم « حور محب » أعلن أنه جاء فى النهاية لينقذ البلد من الفوضى والمثالية الخيالية وقيم النظام والعمل . كما أعلن أنه سوف — كما كان يؤكد على الدوام — يضع حدا لتراخى السلطة كما سيعمل على تحسين ظروف الشعب . وانه سيقطع أنف كل من يخل بواجبات الوظيفة .

وعمل العاهل على القيام باصلاح مضاد وسار نحوه بخطى واسعة عملاقة مما جعله ينحرف عن الطريق الى التعصب المقوت . وأصدر منشورات وارسل الرجال الى الحدود وطارد اتباع اخناتون فى كل مكان .

وسار الأسرى من الزعماء فى شوارع طيبة باستمرار وكذلك سار السجناء موثوقى الأيدي . وترك موسى وقومه أرض مصر وسار بهم نحو الشمال باحثا عن وطن جديد . كما قتل بعض أقارب الفرعون القديم ومنهم « أنخيس » .

وامتلأت المعابد بالثروات فى نفس الوقت ، ونحتت وأقيمت مئات التماثيل من الأحجار النادرة . وسرعان ما استعاد كبار الكهنة سلطانهم بعد ان أحاط بهم الكثير من الخدم والتابعين .

وأخيرا يقوم الجنرال « حور محب » بهدم مدينة الأفق وهو يقول أنها يجب أن تسحق وتباد وتمسح من ذاكرة الناس .

وسقطت المدينة بشعبها الأعزل لا يقدر على اظهار أى نوع من المقاومة . سقطت فى أياد معادية شرسة . وقامت فصائل حاكمة ومتعصبة بهدم المنشآت وضرب اسمى اخناتون ونفرتينى بالمطارق كما كسروا رؤوس وأعضاء التماثيل .

وعلاوة على الضجيج المزعج المفرغ أسمع صياح الناس احتجاجا على ذلك « الآثم الملحد المجرم » ولو كانت مومياء اخناتون موجودة ، لرفضوا أن يضعوا لها حجرا يريح رأسه . ولأحالوا جسيده الى رماد ونشروا هذا التراب مع الرياح تذروه فى جهات العالم الأربع .

وفى القصر العلوى الذى كنت أقيم فيه وحيدة مع نفرتيتى ، كان أحد الحراس يقوم بوضع بعض المؤن ثم يختفى ، وذلك بالرغم من زعجتنا فى مخالطة الناس ، ورغم محاولتى ومناوراتى ، لم تتمكن من اجتياز الأبواب التى يقوم بحراستها جنود مسلحون .

ومن فوق السطح ، كنا ننظر من وراء حواف الجدران والأعمدة ، مندهشين من حماس القائمين بالهدم وصغرهم . كنا نرى جدران وأعمدة وأسطحا تنهار فيما يشبه صاعقة من الغبار والضجيج .

وشاهدنا فى انهيار تام تهدم مدينتنا . فكنا نتمنى أن نقبض أرواحنا . لكن أى قاتل لم يتسبب إلينا ! فى هذا المكان . لم يأت أحد ! لم يأت أحد !

وقد رأى « حور محب » أن يبقى على القصر الشمالى دون أن

يهدمه واضعاً بلا شك في اعتباره أن أشيد عقاب ينزله بـ «نفر تيتى»
أن يجعلها ترى بعينها انهيار حلم اخناتون .

وهرب آخر من كانوا يقطنون المدينة واعتنق البعض منهم
أفكار الغالبين المنتصرين . وتكدست الأقدار في الشوارع وانتشرت
أكوام التراب .

وسار الآن الضمت في كل الأرجاء ، وتوافدت على مدينتنا
طيور ضخمة نهمة كما وفدت إليها حيوانات الصحراء .

لم تعد مدينة الأفق غير مسطح مستو تضويؤه مربعات ومثلثات
وخطوط . وكانت هذه ذات مغزى في النفس . وهي حية تماماً
مثل الكتابة على صفحة من الورق . وكل يوم أرى الأشياء أقل
وضوحاً واتساقاً . فهل يا ترى يكون السبب في ذلك ما يجري
لعيني اليسرى من انغلاق تدريجي ؟

وليس الماضي بالنسبة لي إلا المستقبل ذاته .

فلا شيء ، لا شيء يمكن أن يقنعني على الإطلاق أن كل شيء
قد مات وانتهى . لا جداول المياه الجافة ، ولا الصخور المتساقطة
من الشاطئ الصخري ، وتلك الرياح الشتوية الباردة التي تراز
في الشوارع العارية ، وذلك السعير الذي يتلاطم ، والبصيف على
أرض بلا أشجار . الفراغ ، الغياب ، الغياب الفراغ .

بجانبى وفي أى مكان آخر ، كان شيء مستمر في الحياة .
النيل يتابع مسيرته ، وطائر المازور الصياد يستمر في طيرانه
كذلك ، والأرض تتابع دورة فصولها . . .

وهناك حيا . في أى مكان آخر وبجانبى وحضور آخر في
أماكن أخرى وأزمان أخرى . . .

واذا كانت أصواتنا ليست غير أصواتنا يا « بوباستوس »
فلن تتمكن من الوصول الى أصوات أخرى • ولن تتمكن هذه
الأصوات من اظهار الأفق دونما اعتبار لاختاتون •

وبالنسبة له ، ذلك الذى لم يسع الى نصر أو انتصار ،
بالنسبة لذلك الذى لن تنقطع شمسُه عن احياء بصيص الأمل فقد
كانت هذه خطوة نحو الأمل ، تلك الشمس الحسبة أثناء الفرق ،
أثناء السقوط وأثناء الليل •

هذا الحلم ، آثار هذه المدينة التى فيها أعيش وأدرك •
ولسوف تبدو على السطح فيما بعد تلال من مدينتنا • من كل
بقاياها •

لن أترك شيئاً وأتركه •

حتى النهاية •

واليوم يأتى المخطوط الى نهايته • وقد بلغت نفرتيتى أكثر
من أربعين عاماً • سوف تختفى ثم تموت •

وسوف أعثر فيما بعد على جسدِها • سوف أعثر عليه
مختلطا بأقراض مدينتها •

وساعتها • أتوقع قدوم كثير من الزوار • وسوف يبقى
وجود الملكة ، وتظل أنفاسها طويلاً • ستبقى حية فى المدينة التى
انطلقا نورها وخمد • وسوف تجذب هؤلاء الزوار •

ولو تلمست الثقة فى أحد هؤلاء الزوار ولمستها ، سوف
أعطيه هذه المذكرات • والاقمت بدفنها فى مكان آمن من الأرض ،
ليعثر عليها المنقبون بعد ذلك •

ولا أملك الجرأة الكافية للتفكير فيما سيصير اليه حال ورق

البردى حينما ينتقل من يد كاتب الى يد كاتب آخر ، ومن قرن الى قرن آخر يأتى بعده !

وبخصوص جهدى وما قمت به ، فان تسجيل هذه الأحداث قد تم طبقا لاجتهادات ذاكرتى ، وطبقا لما كان يملئ على من الكلمات .

ولكن يمكننى أن أؤكد - دون أن أكذب - أنه بين كلمات نفرتيتى وبين كتابتى ، لم تنزلق أية أفكار أو أية مشاعر من عنده ذاتى على ما أظن .

تواريخ حسب ماورد بالرواية

ق م .

- ١ - ميلاد نفر تيتى سنة ١٣٨٨
- ٢ - ميلاد أمينوفيس الرابع الملقب بأخناتون وولد أمينوفيس الثالث وزوجته الملكة « تى » » ١٣٨٧
- ٣ - تولى أمينوفيس الرابع ولاية العهد » ١٣٧١
- ٤ - موت أمينوفيس الثالث » ١٣٧٠
- ٥ - مولد سمنخرع ولد أمينوفيس الثالث » ١٣٧٠
- ٦ - مولد نبخرع الملقب بـ « توت عنخ آمون » ولد أمينوفيس الثالث » ١٣٦٩
- ٧ - أخناتون ونفر تيتى يغادران طيبة بحثا عن مدينة الأفق « مدينتهما » » ١٣٦٩
- ٨ - مولد ابنتهما الكبرى « ميري » زوجة سمنخرع فيما بعد » ١٣٦٨
- ٩ - مولد ابنتهما « ميكيه » » ١٣٦٧
- ١٠ - نهاية مدينة الأفق » ١٣٦٦

- ١١ - ميلاد ابنتهما الثالثة « أنخيس »
وزوجة « توت عنخ آمون » فيما بعد
سنة ١٣٦٦
- ١٢ - أول زيارة قامت بها الملكة « تى »
لمدينة الأفق » ١٣٦٢
- ١٣ - ميلاد « ناكه » البنت الرابعة » ١٣٦٠
- ١٤ - ميلاد « نفر » البنت الخامسة » ١٣٥٨
- ١٥ - موت « ميكه » » ١٣٥٨
- ١٦ - مولد « سيتيب » البنت السادسة » ١٣٥٧
- ١٧ - موت الملكة « تى » » ١٣٥٥
- ١٨ - سمنخرع يتولى « وليا للعهد » فى
مدينة أخناتون » ١٣٥٥
- ١٩ - موت أخناتون » ١٣٥٤
- ٢٠ - فترة حكم « توت عنخ آمون » » ١٣٤٧ - ١٣٥٤
- ٢١ - فترة حكم الجنرال القائد « حورمحب » » ١٣٢٧ - ١٣٤٧
- ٢٢ - هدم مدينة الأفق » ١٣٤٧
- ٢٣ - موت نفرتيتى المتوقع حدوثه فى
هذا العام » ١٣٤٤

صدر من هذه السلسلة :

- ١ - الطبق الطائر
- ٣ - فى مهب الريح
- ٣ - عود الورد الأسباني
- ٤ - قطار فى الجليد
- ٥ - تل العشاق
- ٦ - من قتل مولير ؟
- ٧ - حياة الغاب
- ٨ - مستر تشيبسى
- ٩ - شحاذون ومعتزون
- ١٠ - ليلة القدر
- ١١ - النسر

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٨/٧١٤٨

ISBN - ٩٧٧ - ٠١ - ١٩٤٧ - ٤

صدر من هذه السلسلة

- ١ - الطبق الطائر
- ٢ - في مهب الريح
- ٣ - عود الورد الأسباني
- ٤ - قطار في الجليل
- ٥ - تل العشاق
- ٦ - من قتل مولير و ؟
- ٧ - حياة الغاب
- ٨ - مستر تشيبس
- ٩ - شحاذون ومعتزون
- ١٠ - ليلة القدر
- ١١ - النسر

« نفرتيتي وحلم إخناتون » رواية مصرية لكاتبة مصرية هي
أندريه شديد ، ولكنها تعيش في فرنسا وتكتب بالفرنسية . .
وهي مؤلفة « اليوم السادس » و « الجلد الضيق » وكلها أعمال
تحدث عن مصر . .

أما هذه الرواية فقد فازت بجائزة إفريقيا والبحر المتوسط ،
وهي تناول عصرا من أزهى عصور مصر الفرعونية التي امتد
نفوذها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا بالتسامح والحب ونبذ
العنف والأحقاد . .

